http://nj180degree.com

ميلان كونديرا

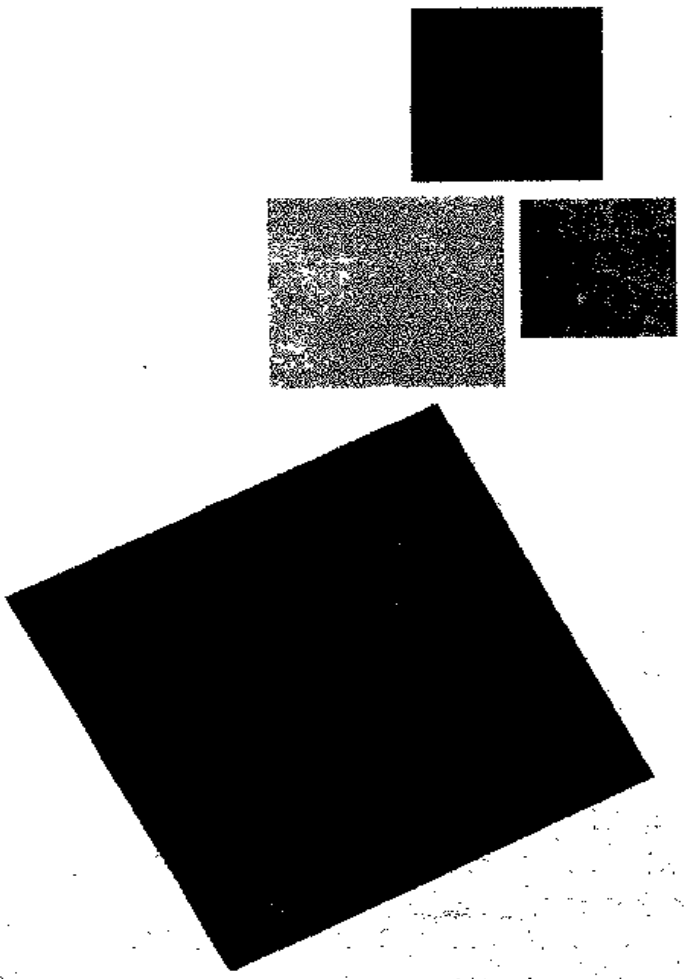

غراميات مضحكة

ترجمة: معن عاقل

Bibliotheca Alexandrina
0111629

القصة القصيرة العالمية (٢٠)

http://nj180degree.com

http://nj180degree.com

ميلان كونديرا

غراميات مضحكة

ترجمة: معن أحمد عاقل

منشورات وزارة الثقافة
في الجمهورية العربية السورية
دمشق ١٩٩٧

http://nj180degree.com

العنوان الأصلي للكتاب :

MILAN KUNDERA

RISIBLES AMOURS

Traduit du tchèque par
François Kérel

NOUVELLE ÉDITION
REVUE PAR L'AUTEUR

غراميات مضحكة = Risibles amours / ميلان كونديرا ؛
ترجمة معن أحمد عاقل . ـ دمشق : وزارة الثقافة ، ١٩٩٧ .
١٩٩ ص ؛ ٢٤ سم . ـ (القصة القصيرة العالمية ؛ ٢٠) .

١ ـ ٨٩١٫٨ ك و ن غ ٢ ـ العنوان ٣ ـ العنوان الوازي
٤ ـ كونديرا ٥ ـ عاقل ٦ ـ السلسلة

مكتبة الأسد

الايداع القانوني : ع ـ ١٩٩٧/٦/٩٦١

القصة القصيرة العالمية
« ٢٠ »

http://nj180degree.com

الإهداء

إلى أمـــي

جذر الفرح العميـق

وإلى أختي منار

أمـــل الغـــد

http://nj180degree.com

http://nj180degree.com

الدكتور هاڤـــل بعـــد عشرين عاماً

١

يوم ذهب الدكتور هاڤل لكي يتعالج ، كانت عينا زوجته الجميلة مبللتين بالدموع . إنها دموع الحنان على الأرجح (لأن هاڤل يتألم مـن مرض المرارة منذ بعض الوقت ولم تشاهده زوجته من قبل يتألم ابداً) لكن الصحيح أيضاً أن احتمال فراقه لمدة ثلاثة اسابيع يوقظ فيهـا عذابات الغيرة .

ما قولكم ؟ هل كانت هذه الممثلة الجميلة والفتية ، والتي هي محط الإعجاب ، تغار على سيد كهل لم يخرج من منزله منذ بضعة شهور دون ان يحمل في جيبه علبة الأقراص لكي يتقي الآلام الغادرة ؟

لكن الأمر كان هكذا ، ولم يكن أحد يفهمها ولا حتى الدكتور هاڤل الذي كان قد ظنها هو ايضاً بحسب مظهرها ، منيعة ومستبدة ؛ ولـم يزده ذلك إلا افتتاناً ، عندما بدأ يعرفها معرفة افضل وعندما اكتشف بساطتها وطبيعتها البيتية وخفرها ؛ والغريب أنهما حتى عندما تزوجا ، لم تأخذ الممثلة اللحظة بعين الاعتبار المزية التي تحظى بها من شبابها ؛ فقد كانت كالمفتونة بحبه وبالشهرة الماجنة المخيفة لزوجها الذي كان يبدو لها دوماً هارباً وعصياً على الإمساك به ، ومع انه لم يدخر جهداً مـع مرور الأيام لإقناعها بفارغ الصبر (وبمنتهى الإخلاص) بانه ليس لهـا ولا يمكن ان يكون لها مثيل ، إلا انها كانت تغار بشدة وألم ؛ وحـده نبلها كان يفلح في الإحتفاظ تحت غطائه بهذا الاحساس السيء الذي لم ينفك يغلي فيها بعنف .

http://nj180degree.com

كان هاقل يعلم كل ذلك ، فيتأثر منه تارة وينزعج تارة أخرى وهو متعب قليلاً فقط ، لكنه كان يبذل ما بوسعه لتهدئة عذابات زوجته لأنه يحبها . كان يحاول هذه المرة أيضاً مساعدتها فيبالغ في آلامه وخطورة حالته لأنه يعلم أن الخوف الذي يعتري زوجته لدى التفير في مرضه هو بالنسبة لها خوف مقوٍ ومطمئن ، بينما تنخرها المخاوف التي تنتابها من عافيته (المليئة بالخيانات والحيل) ؛ لذلك كان يفتتح الحديث غالباً عن الدكتورة فرانتيسكا التي ستهتم به أثناء علاجه ؛ لأن الممثلة تعرفها جيداً وتطمئن لصورة مظهرها السمح تماماً والبعيد حتماً عن أية صورة خليعة .

عندما شاهد الدكتور هاقل ، بعد أن أصبح في الحافلة ، العينين الدامعتين للمرأة الجميلة الواقفة على الرصيف ، اعتراه شعور بالراحة إن صح القول ، لأن حب زوجته ممتع بالطبع لكنه مرهق . ومع ذلك ، لم تكن أحواله في محطة الحمية المعدنية على ما يرام . فبعد أن يتجرع الماء الذي كان عليه أن يروي به جسده ثلاث مرات في اليوم ، كانت تنتابه الآلام ويشعر بنفسه متعباً ، وحين يصادف نساء جميلات تحت القناطر ، يتبين برعب احساسه بشيخوخته وعدم اشتهائه لهن . المرأة الوحيدة التي كان يسمح له برؤيتها حتى الضجر هي فرانتيسكا الطيبة التي تحقنه بالإبر وتقيس له ضغطه وتجس له بطنه وتخبره بكثرة عما يجري في المحطة المعدنية وعن طفليها ، ولا سيما عن ابنها الذي يشبهها على ما يبدو .

كان في هذه الحالة النفسية حين تلقى رسالة من زوجته ، آه يا للمصيبة ! هذه المرة لم يفلح نبل زوجته في الاحتفاظ بالغطاء مغلقاً على المكمن الذي يغلي بغيرتها ؛ فهي رسالة مليئة بالنواح والشكوى : لم تكن تريد لومه على شيء ، كما تقول ، لكنها لا تنام الليل ؛ كانت تعلم جيداً ، كما تقول ، أن حبها يضايقه ، وتتخيل بسهولة مقدار سعادته لأنه وجد سبيلاً للراحة بعيداً عنها ؛ أجل ، تدرك تماماً انها

http://nj180degree.com

تزعجه ، وتعلم أيضا أنها أضعف من أن تغير حياته التي ما تزال مواكب النساء تعبرها ؛ أجل ، تعلم ذلك ولا تحتج ، لكنها تبكي ولا تستطيع النوم ...

حين أنهى هاڤل هذه القائمة الطويلة من النواحات ، تذكر السنوات الثلاث العابثة التي أرغم نفسه خلالها ، بصبر ، على أن يبدو لزوجته كماجن تائب وزوج محب ؛ فشعر بضجر ويأس بالغين . دعك الرسالة بغضب والقاها في سلة المهملات .

٢

وشعر بالتحسن في اليوم التالي ؛ فلم تعد مرارته تؤلمه واعترته رغبة ضعيفة ، لكنها واضحة في العديد من النساء اللواتي شاهدهن في الصباح يتنزهن تحت القناطر . ولسوء الحظ ، طغى اكتشاف خطير جداً على هذا التحسن المتواضع : هؤلاء النساء كن يعبرن بقربه دون ادنى بادرة اهتمام ؛ أصبح يعتبر بالنسبة لهن ضمن الموكب المرضي لشاربي المياه المعدنية الشاحبين ...

قالت له الدكتورة فرانتيسكا بعد أن فحصته في الصباح : « كما ترى ، حالتك افضل . وعلى الأخص ، حافظ على الحمية بدقة . من حسن الحظ أن المريضات اللواتي تصادفهن تحت القناطر هن أكبر سناً واسوأ صحة من أن يبعثن فيك الاضطراب ؛ وهذا أفضل بالنسبة لك ، لانك بحاجة للهدوء » .

اخذ هاڤل يدك قميصه تحت بنطاله ؛ وبينما يقوم بذلك ، كان يقف امام المرآة الصغيرة المعلقة في الركن فوق المغسلة ، ويتملى وجهه بمرارة . ثم قال بحزن كبير : « إنك مخطئة ، لاحظت انه يوجد بين العجائز اللواتي يتنزهن تحت القناطر بضع فتيات جميلات ، لكنهن لم يعرنني اي اهتمام .

http://nj180degree.com

ـ أجابت فرانتيسكا : « أصدق عن طيب خاطر كل ما تريده ، إلا هذا ! » أشاح الدكتور هاڤل بوجهه عن المشهد الحزين الذي يراه في المرآة ، وحدق في عيني الدكتورة الساذجتين والوفيتين ؛ شعر حيالها بالامتنان ، مع معرفته بأنها لم تقم إلا بإبداء رأيها في تقليد ، رأيها في الدور الذي اعتادت على رؤيته يؤديه (الدور الذي كانت تنتقده ، لكن دوماً بحنان) .

ثم طرق الباب . فتحته فرانتيسكا وأطل منه رأس شاب ينحني باحترام . « آه هذا أنت ! لقد نسيتك تماماً ! » أدخلت الشاب إلى حجرة المعاينة وشرحت لهاڤل : « منذ يومين يحاول رئيس تحرير الصحيفة المحلية لقاءك » .

بدأ الشاب يعتذر بتزلف عن إزعاج الدكتور هاڤل بلا مبرر ، واجتهد (للأسف ! بتعبير متوتر توتراً منفراً بعض الشيء) في استخدام لهجة رقيقة : لا ينبغي الدكتور هاڤل أن يلوم الدكتورة لكشفها عن وجوده ، لأن الصحفي كان سيصل إلى اكتشاف ذلك في كل الأحوال ، ولو في حمام المياه المعدنية إذا اقتضى الأمر ؛ ولا ينبغي للدكتور هاڤل أيضاً أن يلوم الصحفي على وقاحته لأنها صفة ضرورية في مهنة الصحافة، بدونها لن يتمكن من كسب معيشته . ثم أسهب في الكلام عن المجلة المصورة التي تنشرها المحطة مرة في كل شهر والتي يتضمن كل عدد منها مقابلة مع مريض مشهور يتعالج في الحمة ؛ فذكر على سبيل المثال العديد من الأسماء ، منها اسم عضو في الحكومة وآخر لمغنية محترفة وأيضاً اسم لاعب هوكي على الجليد .

قالت فرانتيسكا : « كما ترى ، لا تهتم نساء القناطر الجميلات بك لكنك بالمقابل تهم الصحفيين .

ـ قال هاڤل : إنه « انحطاط بشع » لكنه كان مسروراً بهذا الاهتمام فابتسم للصحفي ورفض عرضه بمواربة واضحة لدرجة تثير العطف

To: www.al-mostafa.com

http://nj180degree.com

« فيما يخصني ، لست عضواً في الحكومة ولا لاعب هوكي ولا مغنية طبعاً . من المؤكد أنني لا أريد التبخيس من قيمة أعمالي العلمية ، لكنها تهم الاخصائيين اكثر مما تهم الجمهور العريض .

ـ اجاب الشاب بصراحة متهورة : لكنك لست من أريد إجراء حديث معه ؛ وحتى لم يخطر ذلك على بالي . إنها زوجتك . علمت أنها ستزورك اثناء علاجك .

ـ قال الدكتور هاقل بمنتهى البرود : انت أدرى مني » ثم دنا من المرآة وعاين من جديد وجهه الذي لم يكن يروق له . زرر ياقة قميصه وهو صامت ، بينما استغرق الصحفي الشاب في ارتباك جعله يفقد بسرعة وقاحته المهنية التي أعلن عنها بفخر ؛ فاعتذر للدكتورة وشعر بالراحة حين أصبح خارجا .

٣

كان الصحفي أرعن أكثر منه غبياً . لم يكن يقدر كثيراً مجلة الحمة المعدنية ، إلا انه كان يترتب عليه ، لأنه المحرر وحيد فيها ، بذل ما بوسعه لكي يملأ كل شهر صفحاتها الأربع والعشرين بالصور والكلمات الضرورية . كان يجد لذلك سبيلا في الصيف لأن الحمة تعج بضيوف مرموقين ، فتأتي عدة فرق موسيقية لتقيم الحفلات في الهواء الطلق ، والأخبار الصغيرة المثيرة متوفرة . أما اثناء الأشهر الماطرة ، فقد كانت الفلاحات والسأم يجتاحون القناطر ، وكان يجب اقتناص اية فرصة . لذلك حين علم بالأمس أن الحمة تضم بين ضيوفها الآن زوج ممثلة مشهورة ، الممثلة نفسها التي تمثل في الفيلم البوليسي الجديد الذي ينجح منذ بضعة اسابيع في تسلية المستحمين المرضى ، تنفس الصعداء وجدّ في بحثه حالاً .

لكنه أصبح خجلاً الآن .

http://nj180degree.com

وفي الحقيقة ، وبما انه كان يشك بنفسه دوماً ، فقد كان في حالة خضوع ذليل بالنسبة للناس الذين يعاشرهم ؛ ويبحث خائفاً في نظراتهم عن تأكيد لحاله وقيمته . لذلك كان يحسب أنهم وجدوه مثيراً للرثاء واحمق ومزعجاً . وهذه الفكرة تتعبه لا سيما وان الرجل الذي ابدى رايه فيه كان جذاباً للوهلة الأولى . لذلك ، بعد أن طارده القلق ، تلفن للدكتورة في اليوم نفسه كي يسألها عن حقيقة زوج الممثلة ، فعلم ان هذا السيد ليس عالماً كبيراً في الميدان الطبي وحسب ، بل شخصية مشهورة جداً حتى بدون ذلك ، فهل يعقل أن لا يكون الصحفي قد سمع بتسميته أبداً ؟

رد الصحفي بالنفي فقالت له الدكتور بدماثة : « طبعاً ، فانت ما زلت طفلاً . ومن حسن الحظ انك لست إلا جاهلاً في الاختصاص الذي برع فيه هاثل بامتياز » .

عندما ادرك ، بعد أن طرح اسئلة أخرى على اشخاص آخرين ، ان الاختصاص الذي المحت إليه الدكتورة ليس إلا الشيقية ، الميدان الذي لا يوجد فيه نظير للدكتور هاثل في بلده على ما يبدو ، شعر بالخجل من اتهامه بالجاهل ومن تأكيده فوق ذلك لهذا الحكم بسبب عدم سماعه بصيت الدكتور هاثل . وبما انه حلم دوماً بأن يصبح خبيراً مثل ذلك الرجل ؛ فقد كان مستاء تماماً لانه تصرف امامه بالتحديد ، أمام معلمه كأحمق مقيت ، وصار يتذكر ثرثرته ومزاحه الأحمق وقلة ذوقه ، ولم يكن بمقدوره إلا التسليم بخضوع بصحة الحكم الذي اعتقد انه قراه في الصمت المستنكر للمعلم وفي نظرته الشاردة المحدقة في المرآة .

ليست الحمة التي حدثت فيها هذه القصة كبيرة ، وجميع الناس يتلاقون فيها عدة مرات في اليوم شاؤوا أم ابوا . لم يصعب إذا على الصحفي الشاب أن يقابل سريعاً الرجل الذي يشغل تفكيره . كان ذلك نهاية بعد الظهر بينما حشد المصابين بالكبد يذهب ويجيء تحت القناطر .

http://nj180degree.com

كان الدكتور هاڤل يرتشف ماءً كريه الرائحة من طاسة من الخزف الصيني. اقترب منه الصحفي الشاب وبدا يقدم له الاعتذارات بارتباك. لم يكن يحسب مطلقاً ، كما كان يدعي ، ان زوج السيدة هاڤل الممثلة المشهورة ، هو نفسه الدكتور هاڤل ، وليس هاڤلاً آخر ؛ لأنه يوجد كثيرون باسم هاڤل في بوهيما ، ومع الأسف لم يتبين الصحفي العلاقة بين زوج الممثلة والطبيب المشهور الذي سمع طبعاً بصيته منذ زمن طويل ، ليس فقط كقطب في عالم الطب ، بل وأيضاً ـ كان بمقدوره على الأرجح السماح لنفسه بقول ذلك ـ بحسب الشائعات والطرائف المتنوعة .

لا يوجد أي سبب لإنكار ان الدكتور هاڤل بمزاجه الكئيب استمع إلى كلمات الشاب بسرور ، ولا سيما تلميحه إلى الشائعات والطرائف التي كان الدكتور هاڤل يعلم تماماً أنها تخضع ، مثل الانسان نفسه ، لنواميس الشيخوخة والنسيان .

قال للشاب « لست مضطراً للاعتذار » وحين شاهد ارتباكه ، أمسكه برفق من ذراعه ودعاه للتسكع معه تحت القناطر . واكد لكي يطمئنه « ذلك لا يستحق الذكر » لكنه كان في الوقت نفسه يركز بمجاملة على تلك الاعتذارات وكرر مراراً : « هكذا إذاً ، سمعت بصيتي ؟ » وفي كل مرة كان يقهقه بضحكة سعيدة .

وافق الصحفي بعصبية : « أجل ، لكنني لم أكن أتخيلك بتاتاً هكذا » .

ـ سأل الدكتور هاڤل باهتمام صادق : « وكيف كنت تتخيلني »؟ وبينما كان الصحفي يغمغم بأمر ما وهو لا يجد شيئاً يقوله ، استطرد هاڤل بكآبة : « أعلم أن شخصيات الروايات والأساطير او الحكايات الطريفة صنعت ، على العكس منا ، من مادة غير معرضة للتلف مع الزمن . كلا ، لا أعني بذلك أن الأساطير والحكايات الطريفة خالدة ؛

http://nj180degree.com

فمن المؤكد انها تهرم أيضا ، وان شخصياتها تهرم معها ؛ لكنها تهرم بحيث لا تتغير ملامحها ولا تزيف ، بل تتلاشى وتمحى ببطء وتنتهي إلى التبدد في شفافية الفضاء . هكذا سيختفي بيبي موكو وهاقل هلوي المجموعات ، وكذلك موييز وبالاس اثينا او القديس فرانسوا ولسيز ، ولكن تخيل أن فرانسوا سيتلاشى ببطء مع العصافير الصغيرة الجاثمة على كتفه ومع الظبي الذي يتمسح بساقه ومع إضمامة اغصان الزيتون التي تمنحه ظله ، تخيل أن كل لوحته ستمحي معه وتتحول إلى زرقة مواسية معه ، اما انا يا صديقي العزيز ، كما هي حالي الآن ، عار ، ومقتلع من الاسطورة ، سأختفي في خلفية مشهد طبيعي ذي الوان سارخة بشراسة وتحت نظر شاب حيوي بطريقة متهكمة » .

كان خطاب هاقل المسهب يحير الصحفي ويحمسه في آن معا ، وتنزه الرجلان ايضا لفترة طويلة في الليل الذي بدأ يحل . عندما افترقا، صرح هاقل بأنه مل من طعام الحمية وأنه سيتناول بسرور عشاءً لذيذاً في اليوم التالي ؛ فسأل الصحفي ما إذا كان يقبل مشاركته فيه .

ووافق طبعاً .

٤

قال الدكتور هاقل حين أصبح على الطاولة مقابل الصحفي وحين تسلم قائمة الطعام : « لا تخبر الدكتورة بذلك ، فلدي فكرة مبتكرة عن الحمية : اتجنب بعناية كل الأطباق التي لا اشتهيها » ثم سأل الشاب عما يرغب بتناوله على سبيل المقبلات .

لم يكن المحرر معتادا على تناول الكحول قبل الوجبات ، ولانه لم يجد شيئا آخر يقوله ، أجاب « فودكا » .

بدا الدكتور هاقل مستاء : « الفودكا ، إنها تفوح برائحة الروح الروسية !

http://nj180degree.com

ـ قال الشاب : هذا صحيح » ومنذ تلك اللحظة ضاع . كان يشبه متقدما للشهادة الثانوية أمام لجنة الامتحان . لا يسعى ليقول ما يفكر به وليفعل ما يريده ، بل يجهد نفسه لإرضاء الممتحنين ؛ يجهد نفسه ليحزر افكارهم ونزواتهم وأذواقهم ؛ ويتمنى أن يكون جديرا بهم . لم يكن ليسلم لأي سبب في العالم بأن عشاءاته كانت سيئة ومستذلة وأنه لم تكن لديه أية فكرة عن النبيذ الذي يجب عليه شربه مع لحم ما . وكان الدكتور هاقل يعذبه عذابا لا نهاية له باستشارته دائما حول اختيار المقبلات والوجبة الاساسية والنبيذ والجبنة .

عندما تأكد الشاب الصحفي أن اللجنة الفاحصة وضعت له علامة سيئة في الامتحان الشفهي للتذوق ، اراد تعويض هذه الخسارة بحماس بالغ فتفحص علانية اثناء الاستراحة بين المقبلات والوجبة الاساسية النساء الحاضرات في المطعم ، وحاول بعد ذلك البرهنة على اهتمامه وتجربته ببضعة تعليقات . اخفق من جديد . عندما قال بأن المرأة الشقراء الجالسة بعد طاولتين ستكون عشيقة ممتازة بالتأكيد ، سأله الدكتور هاقل بدون تحامل عما جعله يقول ذلك . رد المحرر باجابة غامضة ، وحين استفهم منه الدكتور عن تجاربه مع الشقراوات ، تلعثم بكذبات لا تصدق وسكت بسرعة .

كان الدكتور هاقل بالمقابل يشعر بالراحة والسعادة إزاء نظرات الصحفي المعجبة . طلب زجاجة نبيذ احمر لكي ترافق اللحم ، وقام الشاب ، بعد أن انعشه الكحول ، بمسعى جديد كي يظهر نفسه جديراً بحظوة المعلم ؛ فتكلم باسهاب عن فتاة صادفها مؤخرا والتي كان يغازلها منذ بضعة أسابيع على أمل النجاح . كان اعترافه غامضا فترتب على الابتسامة المغتصبة الترامية على وجهه ، بالتباسها المقصود ، الإفصاح عما لم يقله ، لكنها لم تكن تفصح إلا عن ريبة مقموعة بعناء . كان هاقل يشعر تماما بكل هذا ، وبعد أن استثير تعاطفه ، صار يسأل الصحفي عن شتى الصفات الجسدية للفتاة المذكورة ، لكي يتيح له التركيز على الموضوع الذي يؤثره والتكلم بمنتهى الحرية . لكن الشاب فشل هذه

http://nj180degree.com

المرة ايضا : كانت اجاباته غامضة على نحو ملفت النظر ؛ فلم يستطع ان يصف بشيء من الدقة العمارة العامة لجسد الفتاة ولا المظاهر المختلفة اشكالها الخارجي ، وبدرجة اقل ايضا طبعها . إذاً ، انتهى الدكتور هاقل إلى أن يجعل من نفسه موضوع الحديث بكامله ، ومستسلما شيئاً فشيئاً لنشوة الفرح في الامسية ولنشوة النبيذ ، صار يفرض على الصحفي مسارورة روحية مؤلفة من ذكرياته الشخصية ونوادره ونكاته.

راح الصحفي يشرب نبيذه ببطء ويصغي ، وصارت تعتريه اثناء ذلك مشاعر متناقضة : كان قبل كل شيء بائسا : فهو يشعر بنفسه تافها واحمقا ويبدو بمظهر المبتدىء المتردد امام معلم قدير ، ويحس بالخجل من التكلم ؛ لكنه كان سعيدا في الوقت نفسه : فهو يشعر بالزهو لأن المعلم يجلس مقابله ويتحدث معه كرفيق ويبوح له بكل انواع الملاحظات النفيسة جداً .

حين اخذ الدكتور هاقل يستفيض ، رغب الشاب في التكلم بدوره ، والإدلاء بدلوه وموافقته على رأيه والظهور كرفيق انيس ؛ لذلك انزلق من جديد إلى الحديث عن صديقته وطلب من هاقل بسرية فيما إذا كان يوافق على لقائها في اليوم التالي لكي يقول له رأيه فيها على ضوء تجربته؛ وبعبارة أخرى (اجل ، إنها الكلمة التي تفوه بها في اندفاعه) لكي يصادق عليها .

من اين جاءته هذه الفكرة ؟ ألم تولد فجاة من الشمل والرغبة المحمومة بقول شيء ما ؟

ومهما بلغت عفويتها ، فقد كان الصحفي يرجو منها ثلاث فوائد:

— قد يخلق تآمر اهل الخبرة الشائع والسري (التصديق) بينه وبين المعلم علاقة سرية ، وقد توطد الرفقة والتواطؤ الذي كان الصحفي يصبو اليه .

http://nj180degree.com

ـ وإذا أعطى المعلم موافقته (كما كان الشاب يأمل ؛ لأن الفتاة المذكورة استهوته بشدة) فسيكون ذلك اقرارا للشـــاب ولاختياره وذوقه ، وسيكون هكذا قد ارتقى من مرتبة مبتديء إلى مرتبة صاحب في نظر المعلم ، وبذلك سيغدو مهما بحسب رأيه الخاص .

ـ واخيرا : كانت الفتاة نفسها ستحصل على مزيد من القيمـة في نظر الشاب وقد تتحول المتعة التي سيجنيها من حضوره ، من متعة وهمية إلى متعة واقعية (لأن الشاب كان يشعر أحيانا ان العالم الذي يعيش فيه هو بالنسبة له عبارة عن متاهة من المعايير التي لم يكن معناها يظهر له إلا بطريقة مبهمة جداً والتي لا تفلح بالتحول من معايير ظاهرة إلى معايير واقعية إلا بعد اختبارها) .

٥

حين استيقظ الدكتور هاقل في اليوم التالي ، شعر ان مرارتـه تؤلمه قليلاً بسبب عشاء الأمس ؛ وحين نظر إلى ساعته ، تبين له ان عليه ان يكون في جلسة المعالجة بالماء خلال نصف ساعة ، وان عليه بالتالي العجلة ، مع ان العجلة هي إحدى الأمور التي يبغضها كثيراً في العالم ، وبينما كان يرتب شعره ، شاهد في المرآة وجها شعر انه منفر . كان النهار يبدأ بداية سيئة .

لم يكن لديه وقت حتى لتناول افطاره (هذا ايضا بدا له علامة سيئة ، لأنه كان يحرص على عاداته اليومية المنتظمة) وتوجه بسرعة إلى منشأة الحمة المعدنية . حين وصل إليها ، دلف إلى رواق طويل ، طرق بابا فظهرت شقراء جميلة ترتدي قميصا أبيض ، لفتت نظـره بهيئة عابسة إلى تأخره ودعته للدخول . بدأ هاقل يخلـع ملابسه في حجرة الحمام خلف حاجز . سمع بعد برهة « أما انتهيت ؟ » كـان صوت المسددة الذي يزداد فظاظة يهين الدكتور هاقل ويحرشه على الثار (يا للأسف ! لم يكن الدكتور هاقل يعرف منذ سنوات إلا شكلاً

http://nj180degree.com

وحيدا للثار من النساء !) عندئذ خلع سرواله وقلص بطنه ، ثم شد ظهره وأراد الخروج من حجرة الحمام ، لكنه اشمأز بعد ذلك من هذا الجهد المهدد لكرامته الذي كان يبدو له مثيراً للسخرية كثيراً عند شخص آخر ، فترك بطنه يتهدل براحة وتوجه نحو المغطس الكبير بلا مبالاة كان يرتئيها وحدها خليقة به ، وغمر نفسه بالماء الفاتر .

كانت المسدة غير المكترثة كليا بصدره وبطنه تفتح الصنابير على لوحة القيادة ، وحين تمدد الدكتور هاقل في قاع المغطس امسكت ساقه اليمنى وركزت تحت الماء ، مقابل باطن قدمه ، فوهة الأنبوب التي كان ينبجس منها تدفق شديد . حرك الدكتور هاقل ، الذي كان مدغدغا ، ساقه فذكرته المسدة بالنظام .

لعله لم يكن من العسير طبعا إرغام الشقراء على التخلي عن فظاظتها القاسية بمزحة او ثرثرة او موضوع لطيف ، لكن هاقل كان منزعجا جدا ومهانا . كان يقول لنفسه بأنها تستحق العقاب ولم يكن يريد تسهيل الأمور عليها . وعندما بدأت تركز الأنبوب تحت أسفل بطنه بينما هو يستر أعضاءه التناسلية بيديه ، لأنه يخشى التأذي من الدفق العنيف ، سألها عما ستقوم به في ذلك المساء . سألته دون أن تنظر إليه عن سبب اهتمامه ببرنامجها . فأوضح لها بأنه يسكن وحيداً في حجرة ذات سرير واحد وانه يتمنى مجيئها لمشاركته فيها . فقالت له الشقراء : « أعتقد انك اخطأت العنوان وأسرته » أن ينقلب على بطنه .

اذاً ، كان الدكتور هاقل متمددا على بطنه في قاع المغطس ويرفع ذقنه لكي يتنفس . شعر بالدفق العنيف يدغدغ فخذيه وهو مسرور من النبرة الحازمة التي خاطب بها المسدة . لأن الدكتور هاقل عاقب دوما النساء المتمردات والمتعجرفات أو المدللات ، باستدراجهن بفتور ودون أي حنان وبصمته تقريبا ، إلى اريكته التي يصرفهن عنها بمنتهى الفتور ايضا . احتاج لبرهة كي يدرك أنه خاطب المسدة بفتور ملائم ودون أي حنان ، إلا انه لم يستدرجها وعلى الأرجح قد لا يستدرجها إلى

http://nj180degree.com

أريكته . أدرك أنه مرفوض وهذه إهانة جديدة . كان سعيداً لأنه ألفى نفسه وحيدا في حجرة الحمام متدثرا بالمنشفة .

خرج بعد ذلك مسرعا من المنشأة وتوجه نحو لوحة اعلانات سينما لوتان حيث كانت تعرض ثلاث صور إعلانية ، إحداها صورة زوجته التي تبدو فيها مذعورة وجائية أمام جثة . راح الدكتور هافل يتأمل وجهها الرقيق الذي شوهه الهلع ، فشعر بحب غامر وحنين جامح . ظل فترة مديدة دون ان يفلح في تحويل نظره عن الواجهة الزجاجية ، ثم قرر المضي إلى فرنتيسكا .

٦

قال حين أذنت الدكتورة لمريضها بالانصراف ودعته للدخول إلى حجرة المعاينة : « اطلبي القسم الخارجي من فضلك ، يجب ان اكلم زوجتي » .

« هل حدث مكروه ؟

ـ قال هافل : اجل ، اشعر بالوحدة ! »

تأملته فرنتيسكا بارتياب ، أدارت قرص الهاتف على رقم القسم الخارجي ورددت الرقم الذي يمليه هافل عليها . ثم أغلقت السماعة وقالت : « أنت تشعر بالوحدة ؟

ـ قال هافل يتبرم : ولم لا ؟ إنك تشبهين زوجتي . تجدينني رجلاً توقف عن الحياة منذ زمن طويل . إنني بسيط وأعزل وحزين . لقد تقدمت في العمر . ويمكنني ان أصارحك بأن هذا قلما يكون ممتعا.

ـ اجابته الدكتورة : كان يجب أن يكون لك أطفال . ولو حدث ذلك لما فكرت كثيرا بنفسك . أنا أيضا تقدمت في العمر ولكنني لا أفكر

http://nj180degree.com

بذلك . عندما ارى ابني يكبر ، أتساءل كيف سيبدو حين يغدو رجلا ولا انوح على السنين التي انقضت . تخيل انه قال لي البارحة : بماذا يفيد الاطباء مادام الناس سيموتون لا محالة ؟ ما رايك بذلك ؟ وبماذا كنت ستجيبه على هذا السؤال ؟

لحسن الحظ ، لم تسنح الفرصة لهاقل كي يجيب لأن الهاتف رن . رفع السماعة وحين سمع صوت زوجته ، اخبرها في الحال بأنه حزين ولا يوجد احد يتكلم معه ولا احد يرغب برؤيته ، وانه لا يحتمل البقاء وحيدا هنـا .

تكلم صوت خافت في السماعة ، حذر في البداية ، ومشلول ومتلعثم تقريبا ، لكنه انتهى إلى الخضوع قليلا بتاثير كلمات الزوج .

كان هاقل يقول في الميكروفون : « تعالي إلى هنـا من فضلك ، تعالي لمرافقتي هنا حالما تستطيعين ! » وكان يسمع زوجته تجيبه بانه يسعدها المجيء لكن لديها عرض في كل الايام تقريباً .

قال هاقل « في كل الايام تقريبا وليس في كل الايام » وسمع زوجته تجيبه بأنها حصلت على إجازة في اليوم التالي ، لكنها لا تعلم فيما إذا كان الامر يستحق المجيء لنهار واحد .

رد هاقل بسرعة : « كيف يمكنك قول هذا ؟ انت لا تعلمين إذاً قيمة نهار في الحياة القصيرة ؟

ـ سأل الصوت الخفيض في السماعة : ولست عاتبا علي حقا ؟

ـ لماذا ساعتب عليك ؟

ـ بسبب الرسالة ، انت تعاني الآلام وانا ازعجك برسالة حمقاء من امراة غيورة »

http://nj180degree.com

غمر الدكتور هاڤل مكبر الصوت بموجة حنان وأعلنت زوجته (بصوت أصبح الآن متأثراً تماماً) أنها ستأتي في اليوم التالي .

قالت فرنتيسكا حين أقفل هاڤل السماعة : « رغم ذلك أحسدك فلديك كل شيء . عشيقات بقدر ما تريد وأيضا أسرة جميلة » .

كان هاڤل ينظر إلى صديقته التي تتكلم بحسد ، لكنها على الأرجح أسعد من ان تستطيع إضمار الحسد لأي إنسان ، وشعر بالشفقة عليها لأنه يعلم أن الفرح الذي يهبه الأطفال لا يمكن استبداله بأفراح أخرى ، وأن فرحا يرزح تحت وطأة واجب الحلول مكان أفراح أخرى هو فرح سريع الزوال .

ذهب بعد ذلك إلى الغداء ، وآوى إلى القيلولة بعد الغداء ، وعند الاستيقاظ تذكر أن الصحفي الشاب ينتظره في المقهى لكي يعرفه على صديقته . ارتدى ملابسه وخرج . اثناء نزوله درج منزل الشفاء ، لمح في البهو عند حجرة الملابس ، امرأة طويلة تشبه فرس السباق الأصيلة . آه ، لم يكن ينقص إلا هذا ! لأن أولئك النسوة بالتحديد هن اللواتي يولهن الدكتور هاڤل دوما . ناولت سيدة حجرة الملابس المعطف إلى المرأة الطويلة فتقدم هاڤل لمساعدتها على ارتداء الكم . شكرته المرأة الشبيهة بالفرس بفتور فقال لها هاڤل : « هل يمكنني تقديم خدمة أخرى لك يا سيدتي ؟ » وابتسم لها ، لكنها أجابت بالنفي دون أن تبتسم وخرجت على عجل .

شعر هاڤل بالإهانة من ذلك فتوجه نحو المقهى وهو يحس بحالة من العزلة المتجددة .

٧

كان الصحفي جالسا منذ فترة طويلة إلى جانب صديقته (وقد اختار مكانا يستطيع منه رؤية المدخل) ولم يفلح في التركيز على الحديث

http://nj180degree.com

الذي كان يضج بينهما عادة بفرح وبلا كلل . كان يشعر بالتهيب بسبب هاقل . حاول للمرة الاولى منذ تعرفه على صديقته تفحصها بعين ناقدة وبينما راحت تتكلم (من حسن الحظ انها لم تكف للحظة عن الكلام بحيث لم يفطن احد لاضطراب الشاب) اكتشف في جمالها عدة عيوب صغيرة ؛ فاقلقته ، لكنه اطمأن في الحال إلى فكرة ان هذه القائمة من العيوب كانت تجعل جمالها اكثر جاذبية وان وجودهـا برمته يغمره بمنتهى اللطف بسبب تلك العيوب .

لان الشاب كان يحب كثيراً صديقته ..

لكنه إذا كان يحبها كثيرا ، فلماذا استسلم إذاً لفكرة التصديق عليها من قبل طبيب داعر ، وهي فكرة مهينة بالنسبة لها ؟ وحتى إذا منحناه الظروف المخففة ، مفترضين على سبيل المثال ان ذلك ليس إلا امراً عادياً بالنسبة له ، فكيف يحدث ان تقلقه مجرد لعبة بسيطة إلى هذه الدرجة ؟

ليست لعبة . لم يكن الشاب يعلم حقاً ما يجب عليه تصوره عن صديقته ، وقد كان عاجزاً حقاً عن تحديد سحرها وجمالها .

وهل كان إذاً ساذجاً وغراً إلى درجة انه لم يكن يستطيع تمييز المراة الجميلة عن القبيحة ؟

كلا ، لم يكن محروماً من التجربة في هذا المجال ، فقد تعرف آنفاً إلى العديد من النساء وخاض معهن كل انواع المغامرات العاطفية ، لكنه كان يولي نفسه دوماً اهتماما فائقا اكثر من انشغاله بهن . لنتامل على سبيل المثال هذا الحدث البسيط الملفت للانتباه : كان يتذكر تماما لباسه حين خرج مع فلانة ، ويعلم انه في يوم كذا وكذا ارتدى بنطالاً فضفاضا وانه استاء من ذلك ، ويعلم انه ارتدى في يوم آخر كنزة صوفية بيضاء بدا فيها بمظهر رياضي رشيق ، لكنه لم يكن يتذكر مطلقا لباس صديقاته .

http://nj180degree.com

اجل ، هذا ملفت للانتباه فعلا : فقــد كان يعكف عند مغامراته القصيرة على دراسات طويلة ودقيقة لمظهره الشـخصي ، بينما لم يكن لديه إلا حس عام وسطحي حيال من يواجهه من الجنس الانثوي ؛ لانه كان يهتم بالصورة التي يظهرها لرفيقته اكثر من الصورة التي تبديها له رفيقته . ذلك لا يعني انه ليس مهماً بالنسبة له أن تكون الفتاة التي تخرج معه جميلة او غير جميلة . لان عيون الآخرين تشاهدهما وتحكم عليهما معا (عيون الناس) بالاضافة الى أن عيني رفيقته تشاهده ، وكان يحرص كثيراً على ما يرضي الآخرين من صديقته ، لانه يعلم أنهم سيحكمون من شخصية صديقته على اختياره وذوقه ومستواه ، اي عليه نفسه . لكن لان الامر يتعلق تماما بحكم الآخرين ، لم يتجرا على الاعتماد كثيرا على عينيه ؛ بل على العكس ، رضي حتى ذلك الحين بأن يصيخ السمع إلى صوت الراي العام ويطابقه معها .

لكن هل يقارن صوت الراي العام بصوت معلم وخبير ؟ كان يتطلع بفارغ الصبر إلى المدخل وعندما شاهد اخيراً خيال الدكتور هافل من خلال الباب المزجج ، تصنع المفاجأة وقال لصديقته أن رجلا شهيرا يريد إجراء مقابلة معه عما قريب لاجل مجلته يدخل بمحض الصدفة إلى المقهى . توجه لملاقاة الدكتور هافل وقاده إلى طاولته . لم تلبث الفتاة بعد أن قطعت حديثها بضعة لحظات من التعارف ان استأنفت الموضوع بثرثرة مستفيضة .

اخذ الدكتور هافل الذي صرفته منذ عشر دقائق المرأة الشبيهة بحصان السبق يتأمل مليا المراهقة المفردة وهو ما يزال مسترسلا في مزاجه الكئيب . لم تكن المراهقة جميلة جدا لكنها لطيفة جداً ولم يكن ثمة أدنى شكاً في ان الدكتور هافل (الذي قلنا إنه كالموت ، ويأخذ اي شيء) سيأخذهــا لدى ادنى إيماءة عن طيب خاطر . وفي الحقيقــة كان لديها العديد من القسمات المتميزة بغموضها الجمالي : إذ تغطي جذر انفها قطرات دقيقة من النمش الذهبي ، يمكن اعتبارها عاهة على بياض الجلد . كما يمكن اعتبارها ايضا جوهرة طبيعية على ذلك البياض؛

http://nj180degree.com

كانت ممشوقة إلى ابعد حد وهو ما يمكن تفسيره كعيب بالنسبة للأبعاد الأنثوية المثالية ، إلا انه يمكن تفسيره ، بالمثل ، كرشاقة لطيفة للطفولة الدائمة في المراة ؛ كانت ثرثارة جدا وهو ما يمكن اعتباره عادة مستهجنة، لكن يمكن اعتباره ايضا تصرفا موفقا يتيح لرفيقها الاسترسال في تأملاته الخاصة دون ان يتعرض لخطر المفاجاة .

راح الصحفي يراقب خفية ويقلق وجه الطبيب ، ولأن هذا الوجه كان يبدو له متاملا بتجهم (وهو ما لم يكن بشير خير) نادى النادل وطلب ثلاثة اقداح كونياك . احتجت الشابة مدعية أنها لا تشرب ، ثم اسهبت في إقناع نفسها بانه يمكنها وعليها ان تشرب ، وادرك الدكتور هاقل أن هذه المخلوقة الغامضة جماليا التي تكشف في تدفق كلماتها كل بساطة روحها ، ستكون على الارجح إخفاقه الثالث في هذا النهار ، إذا ما قام بمحاولة ، لأن الدكتور هاقل الذي كان قديما ملكا كالموت لم يعد كما كان .

حمل النادل بعد ذلك الكونياك ، فرفعوا جميعا اقداحهم استعدادا لشرب النخب ، وحدق الدكتور هاقل في عيني الفتاة الزرقاوين كما يحدق في عينين معاديتين لشخص لا يهمه امره . وعندما اسر هاتين العينين كما يأسر الاعداء ، بادلهما العداوة ولم يشاهد امامه فجاة إلا مخلوقة غدت سمتها الجمالية واضحة تماما : مراهقة هزيلة ، ذات وجه ملطخ بقذارة النمش ، وثرثارة على نحو غير محتمل .

مع ان هذا التحول جلب السرور للدكتور هاقل مثلما جلبت له السرور نظرة الشاب المركزة عليه باستفهام قلق ، إلا ان تلك الافراح كانت في غاية الضآلة مقابل مرارة الهاوية التي تتكشف فيه . حدث نفسه بانه قد يكون من الخطأ إطالة هذا اللقاء الذي لن يستطيع ان يجلب له أي سرور ؛ افتتح الكلام إذا والقى أمام الشاب وصديقته عدة نكات لطيفة وعبر عن سعادته لأن الفرصة سنحت له بقضاء إحدى أكثر اللحظات متعة معهما، ثم اعلن ان هنالك من ينتظره واستأذن بالانصراف.

http://nj180degree.com

عندما وصل الدكتور هاڤل إلى الباب المزجج ، ضرب الشاب جبهته وادعى انه نسي تماما الاتفاق على موعد من اجل إجراء المقابلة . خرج مستعجلا ولحق بهاڤل في الطريق . فسأله : « إذاً ، كيف وجدتها ؟ »

نظر الدكتور هاڤل ملياً في عيني الشاب الذي كان إعجابه المتلهف يثير العطف .

وبالمقابل ، كان صمت الدكتور هاڤل يضايق الصحفي ، بحيث بادر للقول : « أعرف ، إنها ليست جميلة .

ـ قال هاڤل : بالطبع ليست جميلة » .

طاطأ الصحفي رأسه : « وثرثارة قليلا ، لكن فيما عدا ذلك لطيفة !

ـ قال هاڤل : أجل ، لطيفة . لكن قد يكون الكلب أيضا لطيفا . وكذلك الكناري او البط الذي يتخطر في ساحة المزرعة . المهم في الحياة ليس الإستحواذ على أكبر عدد ممكن من النساء ، لأن ذلك ليس إلا نجاحاً ظاهرياً . بل المقصود تنميته حاجة ملحة لنفسه . تذكر جيداً يا صديقي بأن الصياد الحقيقي يلقي الأسماك الصغيرة في الماء » .

أخذ الشاب يعتذر وأكد انه كانت لديه شكوك جدية بشأن صديقته، ويشهد على ذلك انه طلب رأي الدكتور هاڤل .

قال هاڤل : « لا أهمية لذلك . فلا تشغل نفسك به » .

لكن الشاب كان يواصل الاعتذار وتبرير سلوكه ، وانتهى إلى القول بأن عدد النساء الجميلات الموجودات في الحمة قليل في الخريف وأنه كان مضطراً لأخذ ما يجده .

رد الدكتور هاڤل : « لا اتفق معك في هذه النقطة . شاهدت هنا العديد من النساء الجذابات جدا . لكنني سأصارحك بأمر . ثمة جمال

http://nj180degree.com

ظاهري للمراة التي يعتبرها الذوق القروي خطأ جميلة . ومن ثم يوجد الجمال الحقيقي الشبقي للمراة . لكن المؤكد ان معرفة ذلك الجمال من النظرة الاولى ليس امرا سهلا . إنه فن » ثم صافح الشاب وابتعد .

٨

اصبح الصحفي يائسا :كان يدرك انه غبي لا علاج له، تائه في صحراء شبابه المترامية (كان يظنها مترامية) ؛ ويدرك أن الدكتور هاڤل وضع له علامة سيئة ؛ ويتراءى له دون اي مجال للشك أن صديقته تافهة ومنفرة وغير جميلة . حين عاد للجلوس بجانبها ، توهم بأن جميع رواد المقهى ، مثل النادلين اللذين يذهبان ويجيئان ، يعلمون بذلك وينظرون إليه بشفقة مهينة . طلب الحساب وأوضح لصديقته أن لديه عملاً مستعجلا وانه مضطر لمغادرتها . اغتمت وشعر بقلبه ينقبض : فقد كان يعلم تماما بانه على وشك أن يلقيها ثانية في الماء مثل صياد حقيقي ، ومع ذلك ما زال يحبها في قرارة نفسه (سرا وبنوع من الخجل) .

لم يومض اليوم التالي باي بصيص نور في مزاجه الكئيب ، وحين التقى الدكتور هاڤل امام منشاة الحمة المعدنية برفقة سيدة انيقة ، وزح تحت وطاة احساس بالحسد يكاد ان يشبه تقريبا الكراهية : فتاك المراة جميلة على نحو فاضح ، ومزاج الدكتور هاڤل الذي اوما له بفرح حين لمحه منشرح على نحو فاضح ، حتى أن الصحفي اصبح يشعر بنفسه اكثر بؤسا .

قال هاڤل : « اقدم لك رئيس تحرير مجلة الحمة : سعى للتعرف علي فقط ليحظى بمقابلتك » .

حين ادراك الشاب انه إزاء امراة شاهدها على الشاشة ، لم يفتا ارتباكه يتزايد ، اكرهه هاڤل على مرافقتهما ، وراح الصحفي يشرح مشروع مقابلته متلعثما واردفه بفكرة جديدة : أن ينشر في مجلته مقابلة مزدوجة للسيدة هاڤل والدكتور .

http://nj180degree.com

أجاب هاڤل بسرعة : « يا صديقي العزيز ، كانت الأحاديث التي تبادلناها لطيفة وحتى ممتعة بفضلك لكن أخبرني لماذا يترتب نشرها في صحيفة مخصصة للمصابين بالكبد وبالقروح في الأمعاء ؟

ـ تهكمت السيدة هاڤل : اتخيل احاديثك بيسر .

ـ قال الدكتور هاڤل : تكلمنا عن النساء . وجدت في السيد رفيقا ومحدثا من الطراز الرفيع ، والصاحب المضيء في ايامي المظلمة » .

التفتت السيدة هاڤل نحو الشاب : « الم يسئمك ؟ » .

كان الصحفي سعيداً لأن هاڤل سماه صاحبه المضيء ، واصبح حسده ممتزجا بالإمتنان : فالاصح أنه هو الذي أسام الدكتور ، وانهى لان يضيف بانه كان على دراية تامة بقلة خبرته وعدم أهميته وتفاهته .

قالت الممثلة : « آه يامزيزي ، لابد وانك تباهيت ! » .

دافع الصحفي عن الطبيب « هذا ليس صحيحا ! انت تقولين ذلك ياسيدتي العزيزة لانك لاتعرفين ماهي المدينة الصغيرة وماهو الحجر الذي اقطنه .

ـ احتجت الممثلة : لكنها مدينة جميلة .

ـ بالنسبة لك أجل ، لانك لاتقيمين فيها إلا لبعض الوقت . اما انا فاقطن فيها وساظل اقطن فيها . دوماً الدائرة نفسها من الناس الذين اعرفهم عن ظهر قلب ، دوماً الناس نفسهم الذين يفكرون جميعاً بالشيء نفسه ، وكل ما يفكرون به ليس إلا حماقات وتفاهات . يجب أن اعيش على وفاق معهم ، شئت ذلك ام ابيت ، واتكيف معهم ، شيئاً فشيئاً ؛ دون ان انتبه لذلك. كم هو مرعب ! تصوري ان اصبح واحداً منهم ! تصوري أني قد ارى العالم بعيونهم الحسيرة ! » .

http://nj180degree.com

صار الصحفي يتكلم بانفعال متزايد وخيل إلى الممثلة أنها التقطت في كلماته عاصفة الإحتجاج الابدي للشباب ، كانت مفتونة بذلك ومبلبلة منه فقالت : « كلا ، لا ينبغي أن تتكيف . لاينبغي ! » .

ـ وافق الشاب قائلا : لاينبغي ، نبهني الدكتور البارحة . ينبغي بأي ثمن أن اخرج من الحلقة المفرغة لهذا الوسط . من الحلقة المفرغة لهذه الدناءة وهذه الضحالة . ينبغي ان اخرج منها ، ردد الشاب ، ان اخرج منها .

ـ شرح هاقل لزوجته : قلنا إن الذوق الريفي المبتذل يصنع مثلا اعلى مزيفا للجمال ، وان هذا المثال هو الجنسي بالاساس ، لابل مصاد للجنسي ، بينما يظل السحر الحقيقي الجنسي والمتفجر خفيا على ذلك الذوق . يوجد حولنا نساء بمقدورهن تعليم أي رجل على اكثر المغامرات الجسدية المدوخة ولا أحد يراهن .

ـ أيد الشاب : وهو كذلك.

ـ استطرد الطبيب : لا احد يراهن ، لانهن يتطابقن مع المعايير ؛ في الحقيقة ، يتبدى السحر الجنسي بغرابته اكثر من انتظامه ؛ بتعبيريته اكثر من معياره ، بشذوذه اكثر من رشاقته المبتذلة .

ـ أيد الشاب : اجل .

ـ قال هاقل لزوجته : هل تعرفين فرنتيسكا ؟

ـ قالت الممثلة : اجل .

وتعلمين أن كثيرا من أصدقائي يهبون كل ما يملكون لكي يمضوا ليلة واحدة معها . اراهن على قطع راسي ان احدا لم يلاحظها في هذه المدينة.

http://nj180degree.com

حسناً ، اخبرني ياصديقي ، انت الذي تعرفها ، هل لاحظت من قبل ان فرنتيسكا امراة غير عادية ؟

ـ قال الشاب : لا ، بصدق ، لا ! لم يخطر على بالي ابداً النظر إليها كامراة !

ـ قال الدكتور هاقل : لايدهشني ذلك . فانت لم تكن تجد فيها الرقة الكافية ولا الثرثرة الكافية . وليس لديها نمش !

ـ قال الشاب بهيئة بائسة : وهو كذلك . ادركت البارحة إلى اي مدى انا احمق .

ـ استطرد هاقل : لكن هل لاحظت أحياناً مشيتها ؟ هل لاحظت من قبل ان ساقيها تتكلمان بفصاحة حين تمشي ؟ يا صديقي ، لو كنت تسمع ما تقوله ساقاها ، لاصطبغ وجهك بالاحمر ، ومع ذلك انت فاسق لعين كما اعرفك » .

ـ ٩ ـ

قالت الممثلة لزوجها حين أصبحا وحيدين : « تحب كثيراً الاستهزاء بالساذجين .

ـ قال : تعلمين أن هذا بالنسبة لي علامة مزاج طيب . وأقسم لك انها المرة الاولى التي يحصل لي فيها ذلك منذ وجودي هنا » .

لم يكن الدكتور هاقل يكذب هذه المرة ؛ فعندما دخلت الحافلة إلى المحطة في الصباح ، وشاهد عبر زجاج النافذة زوجته الجالسة ، ثم حين شاهدها تقف على باب الحافلة مبتسمة ، شعر بنفسه سعيداً ، وبما ان الايام السالفة تركت فيه مخازن البهجة سليمة بكاملها فقد عبّر عن فرحه طيلة النهار بطريقة طائشة قليلا . تنزها سوية تحت القناطر

http://nj180degree.com

وتلذذا باقراص الحلوى وذهبا إلى فرنتيسكا ليستمعا عندها إلى التعليقات حول احاديث ابنها الاخيرة ، قاما بنزهــة مع الصحفي وقد ذكرناها في الفصل الســابق وسخرا من النزلاء المرضى الذين يقومـون بنزهتهم الصحية في شوارع الحمة . لاحظ الدكتور هاقل بهذه المناسبة ان بعض المارة يحدقون في الممثلة ، وقد تيسر له التاكد انهم توقفوا للنظر إليهمـا حين التفت إلى الوراء .

قال هاقل : « لقد عرفوك . الناس هنا لا يدرون ماذا يفعلون لذلك يذهبون إلى السينما بولع .

ـ هل يزعجك ذلك ؟ سالت الممثلة التي كانت تعتبر الإعلان اللازم لمهنتها بمثابــة ذنب ، لانها مثل جميــع أولئك الذين يعشقون الحب الحقيقي ، كانت تتوق لحب هادىء وخفي .

ـ قال هاقل : بالعكس » وضحك ، ثم تسلياطويلا بلعبة صبيانية ، وهمـا يحاولان أن يحزرا المــارة الذين سيتعرفون عليها او لن يتعرفوا عليها ، ويتراهنان على عدد الاشخاص الذين سيتعرفون عليها في الشارع التالي . وكان الناس يلتفتون إلى الوراء ، سادة عجائز وفلاحون وصبية، وأيضاً عدد من النســاء الجميلات اللواتي كن يتعالجن في هذا الفصـل .

كان هاقل الذي يعيش مهملا على نحو مهين منذ بضعة أيام يبتهج من اهتمام المارة ويرغب في أن تسلط عليه أيضا اشعة الانتباه بقــدر المستطاع ؛ فيطوق خصر الممثلة ، ويهمس في اذنهــا بكل أنواع الغــزل والفجور ، وكانت بالمقابل مشـــدودة إليه وتتطلع إلى وجهــه بعينيها الفرحتين . وأصبح هاقل بتأثير الانظار الموجهة إليه يشعر انه يستعيد وجوده المرئي المفقود ، وان قسماته الغامضة غدت محسوسة وواضحة ، وصار مزهوا من جديد بالفرح الذي يمده به جسده وخطواته وكل كيانه .

كانا يحاذيان هكذا الواجهات الزجاجية للشارع الرئيسي متحاضنين بحب ، حين لمح الدكتور هاقل في متجر لوازم الصيد المسدة الشقراء

http://nj180degree.com

التي عاملته في الأمس بمنتهى الازدراء ، كانت في الحانوت الفارغ وتثرثر مع البائعة . قال فجأة لزوجته المندهشة « تعالي ، إنك أروع مخلوقة أعرفها ؛ أود تقديم هدية لكِ » ثم أمسك يدها وجذبها إلى المتجر .

سكتت المراتان ؛ وتأملت المسدة طويلا الممثلة ، ثم باختصار هائل، ثم من جديد الممثلة ، ثم هائل الذي لاحظ ذلك بارتياح ، لكن دون أن يخصها بنظرة واحدة استعرض بسرعة السلع المعروضة ؛ أخذ يتفحص قرون الأيل ومحافظ الصيد والقدارات والمناظير والقصبات والكمامات .

سألت البائعة : « ماذا تريدان ؟

ـ قال هائل : لحظة » ثم انتهى إلى اكتشاف صفارات تحت زجاج منضدة البائعة فأشار إليها بإصبعه . ناولته البائعة إحداها ، فوضعها هائل بين شفتيه وصفر ، ثم تفحصها ثانية من كل الجهات وصفر مرة أخرى بلطف . قال للبائعة « ممتاز » ووضع أمامها الخمس كورونات المطلوبة . ناول الصفارة إلى زوجته .

كانت الممثلة ترى في هذه الهدية إحدى التصرفات الصبيانية التي تحبها لدى زوجها، وتهريجاً يستمد معناه من لغوه، فشكرته بنظرة حب. لكن هائل ارتأى أن ذلك ليس كافيا وقال لها بصوت خافت : « أهكذا تشكرينني على هدية بمثل هذا الجمال ؟ » فقبلته الممثلة . تابعتهما المراتان بعيونهما وتعقبتاهما أيضا بنظراتهما حين خرجا من المتجر .

بعد هذا تابعا من جديد نزهتهما في الشوارع والحديقة العامة ؛ وقضما أقراص الحلوى ، وصفرا بالصافرة ، وجلسا على مقعد وتراهنا ، وهما يتسليان بالتحزر عن عدد المارة الذين كانوا على وشك الالتفات إلى الوراء . وحين دخلا في المساء إلى المطعم ، كانا يصطدمان بالمرآة الشبيهة بحصان السباق . ألقت عليهما نظرة مندهشة ، طويلة على الممثلة ومختصرة على هائل ثم من جديد على الممثلة ، وحين نظرت ثانية

http://nj180degree.com

إلى هائل حيته رغما عنها . حياها هائل بدوره ، وسأل زوجته بصوت خافت وهو ينحني على اذنها فيما إذا كانت تحبه . رمقته الممثلة بنظرة عاشقة مديدة وداعبت وجنته .

جلسا بعد ذلك إلى طاولة ، وتناولا وجبة خفيفة (لأن الممثلة كانت تراعي حمية زوجها بدقة) ، وشربا النبيذ الأحمر (الوحيد الذي يحق للدكتور هائل شربه) ثم اعترت السيدة هائل برهة تأثر . مالت نحو زوجها وأمسكت يده وقالت له بأن هذا النهار هو من اجمل النهارات التي عرفتها ؛ واعترفت له بأنها شعرت بالحزن الشديد حين غادر للاستشفاء ؛ اعتذرت ايضا مرة اخرى لأنها كتبت له رسالة حمقاء من امرأة غيورة وشكرته لأنه تلفن لها وطلب منها اللحاق به ؛ قالت بأنه سيسعدها دائما المجيء لمرافقته حتى لو لم تره إلا دقيقة واحدة ؛ ثم شرحت بإسهاب ان الحياة مع هائل هي بالنسبة لها عذاب وشقاء في كل اللحظات ؛ كما لو كان هائل على وشك الفرار منها دوما ؛ لكن لهذا السبب بالذات ، كان كل يوم بالنسبة لها فرحا متجددا ، واستئنافا جديدا للحب ، وهبة جديدة .

ثم توجها سوية إلى حجرة الدكتور هائل وبلغ فرح الممثلة ذروته بسرعة .

١٠

بعد اليوم التالي ، ذهب الدكتور هائل إلى جلسة المعالجة بالماء ووصل ثانية متأخراً ، لأنه لم يصل ابداً في الموعد المحدد حقاً . واستقبلته المسدة الشقراء نفسها ؛ لكنها لم تبد له هذه المرة وجها عبوساً ، ابتسمت له ونادته بالدكتور ، فاستنتج هائل من ذلك انها ذهبت للاطلاع على بطاقته في مكتب المنشأة او انها استخبرت بشأنه . لاحظ هذا الاهتمام برضى وذهب ليخلع ملابسه خلف حاجز الحمام ، وحين أخبرته المسدة أن حوض الحمام امتلأ ، خرج مبرزاً سرته بفخر وتمدد في المغطس مبتهجاً .

http://nj180degree.com

ادارت المسدة الصنبور على لوحة القيادة وسألت هاڤل فيما إذا كانت زوجته ما تزال معه . رد هاڤل بالنفي فسألته المسدة فيما إذا كان الناس سيشاهدونها عما قريب في فيلم جميل . رد هاڤل بالايجاب، ورفعت المسدة ساقه اليمنى . ولأن الدفق كان يدغدغ باطن قدمه ابتسمت المسدة وقالت بأن الدكتور يبدو ذا جسد حساس جداً . ثم ظلا يثرثران وعلق هاڤل بأن الحياة مضجرة هنا . ابتسمت المسدة ابتسامة معبرة وقالت بأن الدكتور يعرف كيف يتدبر أمره لكي لا يضجر. وحين انحنت إلى الأمام لكي تركز الفوهة على صدره وحين أطرى هاڤل نهديها اللذين شاهد جيداً الجزء الأعلى منهما في الوضعية التي الفى نفسه فيها ، أجابت المسدة بأن الدكتور شاهد من قبل اجمل منهما حتماً .

استنتج هاڤل من هذه الاحاديث ان الإجازة القصيرة لزوجته قد غيرته تماماً في نظر هذه الفتاة اللطيفة ذات العضلات ، وانه اكتسب فجأة سحراً والأصح : أن جسده غدا بالنسبة لها فرصة للارتباط سراً بممثلة مشهورة ولتصبح مثل امرأة ذائعة الصيت تجذب إليها انظار الجميع . ادرك هاڤل ان كل شيء مباح له في الحال ، وانه موعود بكل شيء ضمناً ومقدماً .

لكن وحسب ما يحدث في الحياة غالباً ، حين نكون مسرورين نرفض عن طيب خاطر وبمجرفة الفرص التي تسنح لنا ، لكي نؤكد ذواتنا في امتلائنا المغتبط . كان يكفي أن تتخلى الفتاة الشقراء عن كبريائها المهين وأن يصبح صوتها رقيقاً ونظرتها متواضعة لكي يفقد الدكتور هاڤل رغبته بها .

توجب عليه بعد ذلك التمدد على بطنه والاحتفاظ بذقنه خارج الماء واستمتع بالدفق الشديد يرشه من رأسه حتى قدميه . كانت هذه الوضعية تبدو له وضعية دينية للخشوع والشكر : كان يفكر في زوجته

http://nj180degree.com

ومقدار جمالها ومقدار حبه لهـا ومقدار حبها له ، وانها كانت نجمته السعيدة التي تكسبه حظوة المغامرة والفتيات ذوات المضلات .

وعندما انتهى التدليك ونهض للخروج من المغطس ، بدت له المسدة ذات البشرة الدبقة بجمال في غاية الكمال وغاية اللذة ، ونظرتها مذعنة منتهى الخضوع ، وان لديه رغبة بالانحناء في الاتجاه الذي يتوقع وجود زوجته فيه عن بعد . لأنه كان يخال أن جسد المسدة واقف على اليد الضخمة للممثلة وأن تلك اليد تناوله الجسد كرسالة حب وكقربان . وراودته فكرة بأنه يهين زوجته إذا رفض هذا القربان ورفض هذه اللفتة الحنونة . ابتسم للشابة المتعرقة وقال لها بأنه حجز سهرته لها وانه سينتظرها في فورش الساعة السابعة . وافقت الشابة وتدثر هاڤل بمنشفة الحمام الكبيرة .

حين ارتدى ملابسه ورتب شعره ، تأكد أن مزاجه منشرح للغاية. كان يرغب بالثرثرة فتوقف عند فرنتيسكا ، وقد جاءت هذه الزيارة في أوانها لأنها هي ايضا كانت في حالة ممتازة . راحت تتكلم عن كل شيء ولا شيء ، وتنتقل بين شتى الأحاديث المتهافتة ، لكنها تعود دوما الى الموضوع الذي عالجاه عند لقائهما الأخير : عمرها ؛ فقد كانت تحاول بعبارات مبهمة الإشارة إلى انه لا ينبغي الرضوخ لعدد السنين وان عدد السنين لا يشكل عائقا دوما ، وأنه بإحساس في غاية الروعة حين يكتشف المرء فجأة انه يستطيع التكلم بهدوء كند مع اناس أكثر شبابا . قالت فجأة : « وليس الأطفال كل شيء . انت تعلم مقدار حبي لأطفالي، لكن ثمة امور اخرى ايضا في الحياة » .

لم تخرج افكار فرنتيسكا للحظة عن نطاق التجريد الغامض ، وبالنسبة لأي شخص غير خبير لا يمكن ان يكون ذلك سوى ثرثرة عابرة. لكن هاڤل كان خبيراً واكتشف المضمون الذي يتوارى وراء الثرثرة . استنتج من ذلك أن سعادته الشخصية ليست إلا حلقة في سلسلة طويلة من السعادات وقد تضاعف ابتهاجه لأن له قلباً نبيلا .

http://nj180degree.com

١١

أجــل ، كان الدكتور هاقل يرى الصواب : ذهب الصحفي إلى الدكتورة في اليوم نفســه الذي مدحها فيه معلمه . أظهر جراة مفاجئــة بعد بضعة عبارات وقال لها بأنــه معجب بها وبود رؤيتها . اجابتــه الدكتورة بصوت متهدج انها اكبر منه سنآ ولديها أطفال . شعر الصحفي من هذه الاجابة بازدياد ثقته في نفسه ولم يجد أية صعوبة في العثور على الرد المناســب :اكد أن الدكتورة تتمتع بجمال خفي اثمن من الجمال المبتذل ؛ قرظ مشيتها وقال أن ساقيها تتكلمان حين تمشي .

وبعد يومين ، حين كان الدكتور هاقل يصــل متمهلاً إلى فورش ويلمح من بعيد الفتاة الشقراء ذات العضلات ، كان الصحفي يتمشــى بلهفة في ملحقه الضـيـق ؛ كان شبه واثق من نجاحه ، لكنه يخشى احتمال الخطأ أو الصدفة التي قد تحجبه عنها ؛ كان يفتح بين الفينة والاخرى الباب لينظر نحو الاسفل إلى قفص الدرج ، شاهدها أخيراً .

كان الاهتمام الذي ارتدت به الدكتورة ملابسها وتجملت ينســي تقريباً المظهر المألوف لهذه المرأة بالبنطــال الابيض والقميص الابيض ؛ اخذ الشـاب يقول لنفسه في غمرة اضطرابه أن السحر الجنسي لفرنتيسكا الذي لم يكن حتى ذلك الحين إلا هاجسـاً ، أصبح الآن حاضراً امامه ، ومفضوحاً على نحو فاحش تقريباً ، وشعر أن الخجــل الذي يولــد الاحترام يستولي عليه ؛ ولكي يقهره ، أمسك الدكتورة من ذراعيها حتى قبل أن يغلق الباب وبدأ يقبلها بشدة . جفلت من هذه المفاجأة ورجته أن يدعها تجلس . وافق على ذلك ، لكنه جلس في الحال عند قدميهــا وقبّل جواربها فــوق الركبتين . وضعت يدهــا في شــعره وحاولت إبعــاده برفق .

لنرهف السمع إلى ما كانت تقوله له : بادىء ذي بدء ، رددت عدة مرات : « يجب أن تكون عاقلا ، يجب أن تكون عاقلا ، عدني أن تكون

http://nj180degree.com

عاقلا » عندما قال لها الشاب : « اجل ، اجل ، ساكون عاقلا » وهو يقرب شفتيه إلى اعلى فوق النايلون الخشن ، قالت : « لا ، لا ، ليس هنا ، لا ، لا » وحين وضعهما إلى اعلى ايضاً ، بدأت فجأة ترفع الكلفة معه واكدت : « اوه ، انت مجنون ، اوه انت مجنون ! » .

هذا التاكيد قرر كل شيء . لم يصادف الشاب بعد اية مقاومة . كان مذهولا ؛ مذهولا من نفسه ومن سرعة نجاحه ، مذهولا من عبقرية هاقل التي اصبحت ترافقه وتتغلغل فيه ، مذهولا من عري المراة الراقدة تحته في احتضان عاشق . كان يريد ان يصير معلماً ، كان يريد ان يصبح ماهراً ، كان يريد البرهنة على شبقه ونهمه . نهض بخفة لكي يتفحص بنظرة شرهة جسد الدكتورة الممدد وتمتم « إنك جميلة ، إنك بهية ... » .

اخفت الدكتورة بطنها بيديها وقالت :«امنعك من السخرية مني»

ـ ماذا تقصدين بهذا ! كانني كنت اسخر منك ! انت بهية !

ـ قالت وهي تضمه إليها لكي لا يراها : لا تنظر إلي . لديها طفلان. هل تعلم ذلك ؟

ـ قال الشاب دون ان يفهم : طفلان ؟

ـ هذا واضح . لا اريدك ان تنظر إلي » .

هذه الملاحظة اخمدت نوعاً ما اندفاعة الشاب الاولية ولم يهتد إلى مستوى الإثارة المناسب إلا بجهد ؛ ولكي يبلغه على نحو افضل ، حاول تغذية النشوة الهاربة بالكلمات وهمس في اذن الدكتورة بانه جميل ان تكون معه هنا ، عارية ، عارية تماماً ، عارية تماماً .

http://nj180degree.com

كانت الدكتورة تقول له : « انت لطيف ، انت في غاية اللطف » .

تكلم الشاب ثانية عن عري الدكتورة وسألها فيما إذا كان يثيرها ، هي ايضا ، ان تكون معه هنا عارية .

قالت الدكتورة : « إنك طفل . طبعا يثيرني ذلك » لكنها أضافت بعد هنيهة صمت أن كثيراً من الأطباء شاهدوها من قبل عارية لدرجة ان ذلك أصبح تافها . قالت : « إنهم أطباء أكثر من كونهم عاشقين » ودون ان توقف حركاتهما العاشقة راحت تتكلم عن ولادتها العسيرة : « ذلك يستحق العناء » وقالت كنتيجة : « لدي طفلان رائعان . رائعان ، رائعان ! » .

بدات الإثارة المكتسبة بمشقة تبارح الصحفي مرة أخرى ، كان يشعر فجأة انه في المقهى ويثرثر مع الدكتورة أمام قدح شاي ؛ إنه ناقم عليها ؛ أصبحت حركاتها غاضبة فحاول استمالتها بعبارات أكثر حسية : « حين ذهبت لرؤيتك آخر مرة ، هل كنت تعلمين باننا سنتضاجع ؟

ـ وانت ؟

ـ قال الصحفي : كنت ارغب بذلك ، كنت ارغب بذلك كثيرا ! » وحَمّلَ كلمة « ارغب » شغفاً بليغاً .

همست له الدكتورة : « انت تشبه ابني ، أيضا يود الحصول على كل شيء ، اسأله دوما : الا ترغب بساعة مع فوارة ماء ؟ » .

هكذا كانا يتضاجعان ، الدكتورة تتكلم وهي مفتونة بحديثهما .

حين جلسا بعد ذلك على الأريكة جنباً إلى جنب ، عاريين ومتعبين، داعبت الدكتورة شعر الصحفي وقالت له : « لديك خصلة مثله .

http://nj180degree.com

ـ من هو ؟

ـ ابنـي .

ـ علق الصحفي بلوم خجل : تتكلمين طيلة الوقت عن ابنك .

ـ قالت الدكتورة بفخر : كما تعلم إنه اثير امه ، أثير أمه » .

ثم نهضت وارتدت ملابسها . وفجاة راودها في حجرة الشاب الصغير إحساس بانها شابة ، فتاة في ريعان الصبا ، وشعرت بنفسها معافاة على نحو ممتع . حين غادرت ، ضمت الصحفي إلى صدرها ، كانت عيناها طافحتين بالامتنان .

١٢

بدأ نهار جميل بالنسبة للدكتور هاقل بعد ليلة جميلة . تبادل أثناء الافطار بضعة كلمات واعدة مع المراة الشبيهة بفرس السباق ، وحين عاد من علاجه في الساعة العاشرة كانت تنتظره في حجرته رسالة حب من زوجته . ذهب بعد ذلك للتنزه تحت القناطر في موكب المرضى ، كان يرفع إلى شفتيه طاسة مليئة بماء النبع وينشرق بالغبطة . غدت عيون النساء اللواتي كن يعبرن بجانبه قبل بضعة أيام دون ان يلاحظنه تحدق فيه ، وكان ينحني بخفة لتحيتهن . حين لمح الصحفي ، اقترب منه لمخاطبته بمرح : « مررت بعيادة الدكتورة منذ قليل وبحسب بعض العلامات التي لا يمكن أن تفوت عالم نفس جيد ، لدي إحساس بانك نجحت ! » .

لم تكن لدى الشاب رغبة أعز من الافضاء بما لديه لعلمه ، لكن الطريقة التي انقضت بها سهرة الأمس كانت تتركه مترددا قليلا ، فهو ليس واثقا تماما من أن تلك السهرة كانت رائعة كما يجب ، ولا يعلم فيما إذا كان تقرير دقيق وامين سيرفع من شانه في نظر الدكتور هاقل أم سيحط منه ، وراح يتساءل عما يجب البوح به او إخفاؤه عن الطبيب.

http://nj180degree.com

لكنه حين رأى وجه هاڤل مشرقاً بالوقاحة والمرح ، لم يتمالك نفسه عن إجابته بالنبرة نفسها المرحة والوقحة ، وقرظ بعبارات حماسية المراة التي نصحه بها الدكتور هاڤل . قال بانها فتنته منذ أن بدأ ينظر إليها بعينين مختلفتين عن عيون سكان الريف ، وحكى انها وافقت بلطف على المجيء إلى منزله وانها منحت نفسها بسرعة فائقة ..

حين بدأ الدكتور هاڤل يطرح عليه الأسئلة المحددة والمفصلة ، لكي يحلل الأمر بكل دقائقه ، اضطر الشاب في إجاباته طوعاً أو كرهاً على مقاربة الحقيقة اكثر فأكثر ، وانتهى إلى الاعتراف بأنه رغم رضاه التام من كل الجوانب ، لكن المحادثة التي أجرتها الدكتورة معه أثناء ممارسة الحب اوقعته بشيء من الارتباك .

كان الدكتور هاڤل مهتماً جداً وحين كرر الصحفي على مسامعه المحادثة بالتفصيل ، تحت إلحاحاته ، دعم روايته بعلامات تعجب حماسية « ممتاز ! تمام ! » « آه ، يا لقلب الأم الأبدي ! » و : « احسدك يا صديقي ! » .

في هذه اللحظة ، جاءت المراة الشبيهة بفرس السباق لتقف أمام الرجلين . انحنى الدكتور هاڤل فصافحته المراة الطويلة . قالت : « اعذرني ، إنني متاخرة قليلاً !

ـ قال الدكتور هاڤل : لا اهمية لذلك . لدي حديث هام جداً مع صديقي . ارجوك أن تسمحي لي بلحظة ، اود إنهاء هذه المحادثة » .

ودون ان يترك يد المراة الطويلة ، التفت إلى الصحفي : « ما قلته لي للتو يفوق كل آمالي . لانه يجب ان تفهم أن اللذات الجسدية المهملة في صمتها هي ذات رتابة كئيبة ، امراة تقلد الاخرى في المتعة وجميعها تنسى في جميعها . ولكننا إذا كنا نندفع في متع الحب فذلك لكي نتذكرها لكي تزين نقاطها المضيئة شرايط شبابنا المشع في شيخوختنا ، لكي تحافظ

http://nj180degree.com

على ذاكرتنا في اتقاد ابدي ! واعلم يا صديقي أن كلمة وحيدة واضحة في هذه الحالة الآنفه من كل الحالات ، يمكن أن تضيئها بنور يجعلها لا تنسى. يقول الناس عني بأنني هاوي جمع النساء . وفي الحقيقة إنني هاوي جمع كلمات على الأخص . صدقني بأنك لن تنسى أبداً سهرة الأمس ، وستكون سعيداً بها طيلة حياتك ! » .

ثم أومأ برأسه إلى الشاب ، وابتعد يبطء وهو يمسك بيد المرأة الطويلة الشبيهة بالفرس على امتداد القناطر .

* * *

To: www.al-mostafa.com

http://nj180degree.com

المحـاورة

http://nj180degree.com

http://nj180degree.com

الفصل الأول

قاعة المناوبة :

ضمت قاعة المناوبة (في قسم ما من مشفى ما في مدينة ما) خمسة شخصيات وجدلت تصرفاتهم ونقاشاتهم في حكاية ساخرة ، وبالأحرى مرحة .

يوجد فيها الدكتور هائل والممرضة إليزابيت (كلاهما يمارسان وظيفتهما الليلية) ويوجد طبيبان آخران (قادتهما إلى هنا حجة متهافتة تقريباً للثرثرة والشرب بضعة زجاجات سورية) : المدير بجمجمته الصلعاء ودكتورة جميلة في حوالي الثلاثين من عمرها تعمل في قسم آخر وتعرف كل المشفى عنها انها تنام مع المدير .

(المدير متزوج طبعاً وينطق الآن بعبارته الأثيرة ، التي لا بد لها من ان تؤكد في آن معاً حس الفكاهة لديه ومقاصده : « زملائي الأعزاء ، اكبر تعاسة بالنسبة للرجل هي زواج سعيد . فلا امل بالطلاق ») .

بالإضافة إلى هذه الشخصيات الأربعة ، توجد شخصية خامسة ، ولكنها والحق يقال ليست هنا لانهم ارسلوها لاحضار زجاجة جديدة باعتبارها الاصغر سناً . وثمة نافذة ، وهي مهمة لأنها مفتوحة على ظلام الخارج وتترك المجال باستمرار لدخول القمر مع الصيف الدافيء والمعتر إلى الحجرة . واخيراً ، توجد البهجة التي تكشفها الثرثرة اللطيفة عن كل شيء ، لا سيما عن المدير الذي يصغي إلى هذياناته الشخصية بأذنين عاشقتين .

http://nj180degree.com

بعد ذلك بقليل (وهي اللحظة التي تبدأ فيها قصتنا) يسود توتر ما : شربت إليزابيت أكثر مما يليق بممرضة تمارس عملها ، وفوق ذلك تظهر حيال الدكتور هاقل غنجا مغريا يثيره ويؤدي إلى تنبيه حاد من جانبه .

تنبيه الدكتور هاقل :

« لا افهمك يا عزيزتي إليزابيت . في كل الأيام تتخبطين في جراح متقيحة ، تحقنين بالإبر الأرداف المتصلبة للعجائز ، وتعطين الحقن الشرجية وتفرغين الأحواض . منحك القدر فرصة تحسدين عليها لفهم الطبيعة الشهوانية للرجل في كل بطلانها الميتافيزيقي . لكن حيويتك ترفض الاذعان للصواب . ليس بوسع شيء زعزعة إرادتك العنيدة من ان تكون جسداً وجسداً لا غير . يتحدى نهداك الرجال على مسافة خمسة أمتار ! اشعر بالنشوة لرؤيتك تمشين وحسب ، بسبب الحلزونات الدائمة التي يرسمها ردفك الذي لا يتعب . ابتعدي قليلا بحق الشيطان! نهداك كليا الوجود كالقدر ! إنك الآن متأخرة عشر دقائق عن الحقن ! » .

الدكتور هاقل كالوت يستحوذ على كل شيء .

سأل المدير حين خرجت إليزابيت من قاعة المناوبة (مهانة بوضوح) وقد حكم عليها بحقن ردفين عجوزين : « من فضلك يا هاقل ، هل بوسعك أن تشرح لي لماذا تطرد بمنتهى الاصرار تلك البائسة إليزابيت ؟ » .

شرب الدكتور هاقل جرعة واجاب : « أيها المدير ، لا ينبغي ان تعاتبني . ليس ذلك لانها قبيحة أو لانها لم تعد شابة كثيراً . صدقني ! حصلت سابقاً على نساء اكثر قبحاً واكبر سناً بكثير .

— أجل ، افهمك ، افهمك : انك كالوت ، تستحوذ على كل شيء ولكن ما دمت تستحوذ على كل شيء ، لماذا لا تستحوذ على إليزابيت ؟

http://nj180degree.com

ـ قال هاڤل : ذلك بلا ريب لأنها تفصح عن رغبتها بطريقة معبرة لدرجة ان هذا يشبه الأمر . انت تقول بأنني كالموت حيال النساء لكن الموت لا يحب أن يصدر إليه احد الاوامر » .

النجاح الأعظم للمدير :

« أجاب المدير : « اعتقد انني افهمك . عندما كنت اصغر سنا من الآن ببضع سنوات ، تعرفت الى فتاة كانت تنام مع كل الرجال ولأنها كانت جميلة ، قررت الحصول عليها. تصور ، لم ترغب بي ! كانت تنام مع زملائي ومع السائق والطباخ وحمال الجثث ، وكنت الوحيد الذي لا تنام معه . هل بوسعك تخيل هذا ؟ .

ـ علقت الدكتورة : طبعا .

ـ استطرد ، بتبرم ، المدير الذي كان يخاطب عشيقته باحترام امام الناس : إذا اردت معرفة ذلك ، في تلك الفترة ، كنت قد حزت على الشهادة منذ بضع سنوات فقط وقد حققت الكثير من النجاحات . كنت مقتنعا أن كل امراة سهلة المنال ، وقد افلحت في البرهنة على ذلك مع نساء منيعات جدا . وكما ترين ، اخفقت مع تلك الفتاة رغم انها سهلة جـــدا .

ـ قال الدكتور هاڤل : بحسب معرفتي بك ، لديك بالتأكيد نظرية لتفسير ذلـك .

ـ رد المدير : اجل . الشهوة ليست فقط الرغبة بالجسد ، لكنها في مقياس مماثل ، الرغبة في الشرف . يصبح الرفيق الذي حصلنا عليه والذي يحرس علينا ويحبنا مرآتنا ، إنه مقياس اهميتنا وقيمتنا . من وجهة النظر تلك ، لم تكن عاهرتي الصغيرة مهمة سهلة . عندما تنام امراة مع كل الرجال تكف عن الإيمان بان امرأ تافها مثل ممارسة الحب يمكن أيضا أن يحظى باهمية ما . تسعى إذا إلى الشرف الشهواني الحقيقي من

http://nj180degree.com

الجهة المقابلة . إن رجلاً تمناها لكنها ترفضه هو وحده الذي كان يمكن أن يقدم لماهرتي الصغيرة مقياس قيمتها . وبما أنها كانت تريد أن تصبح في نظره الأفضل والأجمل ، فقد اظهرت نفسها قاسية لأبعد حد ومتشددة حين ترتب اختيار ذاك الرجل الأوحد الذي ستشرفه برفضها . اختارتني في النهاية وادركت ان ذلك كان شرفاً استثنائيا ، واليوم أيضا أعتبر هذا بمثابة نجاحي الغرامي الأعظم .

ـ قالت الدكتورة : لديك موهبة مدهشة لتحويل الماء إلى خمر .

ـ قال المدير : إنك مهانة لأنك لست التي أعتبرها بمثابة نجاحي الأعظم ؟ يجب أن تفهميني . مع انك امرأة فاضلة ، فإنني رغم ذلك لست بالنسبة لك (وليس بوسعك أن تعلمي إلى أي مدى يؤسفني هذا) الأول ولا الأخير ، بينما كنت كذلك بالنسبة لتلك العاهرة الصغيرة . صدقيني ، أنها لم تنسني ابداً ، وما زالت تتذكر بحنين حتى اليوم أنها رفضتني . من جهة اخرى ، لم أرو هذه الحكاية إلا لإظهار التشابه مع موقف هافل إزاء إليزابيت » .

تقريظ الحرية :

قال هافل : « يا إلهي ايها المدير ، انت لن تذهب رغم كل شيء إلى حد المطالبة بأن ابحث في إليزابيت عن معيار قيمتي الإنسانية .

ـ قالت الدكتورة متهكمة : طبعا لا ! لقد شرحت لنا ذلك من قبل. موقف إليزابيت المثير يبدو لك بمثابة امر وتريد الاحتفاظ بوهم انك تختار بنفسك النساء اللواتي تنام معهن .

ـ قال هافل متأملا : كما تعلمين ، بما اننا نتكلم بصراحة ، ليس الأمر هكذا تماماً . في الحقيقة ، كنت اريد فقط ان اكون خفيف الدم حين قلتُ بأن ما يزعجني هو موقف إليزابيت المثير . بصراحة ، حظيت بنساء

http://nj180degree.com

متيرات أكثر بكثير وكان يلائمني تماماً أن يكن مثيرات ؛ لأن الأحداث لم تكن تطـول .

ـ هتف المدير : إذاً ، لماذا بحق الشيطان لم تحصل على إليزابيت؟

ـ ليس سؤالك أيها المدير في العبث الذي ظننته في البدايـة ، لانني ارى انه من العسير جداً الاجابة عليه . ولكي أكون صريحاً لا ادري لاي سبب لم احصل على إليزابيت . حصلت على نساء أكثر قبحاً وأكبر سناً واكثر إثارة . ويمكن للمرء أن يستنتج من ذلك انني سانتهي حتماً إلى الحصول عليها . هذا ما كان سيفكر به جميع الاحصائيين . وكانت كل آلات الاتمتة ستستنتج رأياً في هذا المعنى . وانتبه ، لذلك بلا ريب لم احصل عليهـا . اردت بلا ريب ان اقول لا للضرورة ، أن اعرقـل مبدأ السببية . وإفساد قابلية التوقع الكئيبة للسيرورة الشاملة بنزعة حرية الاختيار .

ـ هتف المدير : لكن لماذا اخترت إليزابيت لاجل هذه الغاية ؟

ـ بالضبط لانه لا يوجد سبب . لو كان يوجد سبب ، لاستطاع المرء سلفاً اكتشافه وتحديد سلوكي مسبقاً . وبالضبط في هذا الغياب للسبب يوجد ذلك الجزء من الحرية الذي يلائمنا والذي علينا ان نتجه نحوه بلا كلل لكي يظل ، في هذا العالم من القوانين القاسية ، شيء من الفوضى الانسانية . زملائي الاعزاء ، لتحيا الحرية ! » قال هاقل ورفع كأسه بحزن لكي يشرب النخب .

مدى المسؤولية :

في هذه اللحظة ظهرت في الحجرة زجاجة جديدة فتركز عليها في الحال كل انتباه الاطباء الحاضرين . كان فليسشمان ، الشاب الجميل المتعثر ، يقف في الباب وبيده زجاجة ، وهو طالب طب يتمرن في القسم . وضع (بهدوء) الزجاجة على الطاولة ، بحث (طويلا) عن مفتاح السدادات ،

http://nj180degree.com

بعد ذلك وتد (ببطء) المفتاح في السدادة وغرزه فيها (متأملا) حتى انتهى إلى استخراجها (حالا) . الاقواس السابقة مخصصة لإظهار بلادة فليسشمان ، تلك البلادة التي كانت تثبت ، بدلا من البلاهة ، الإعجاب اللامبالي الذي كان ينظر به طالب الطب بتان إلى حقيقة وجوده ، مهملا التفاصيل التافهة للعالم الخارجي .

قال الدكتور هاقل : « ليس لهذا اي معنى . فلست انا الذي ارفض إليزابيت ، بل هي التي لا تريدني . وا اسفاه ! إنها مولهة بفليسشمان .

ـ بي ؟ » رفع فليسشمان رأسه ، ثم ذهب بخطوات واسعة لاعادة مفتاح السدادات إلى مكانه ، وعاد بعد ذلك إلى قرب الطاولة الواطئة وصب النبيذ في الكؤوس .

« قال المدير موافقا هاقل على رأيه : إنك طيب ، فالجميع يعلم بذلك إلا انت . ومنذ اللحظة التي وضعت فيها قدميك في القسم ، أصبحت لا تعاشر . وما تزال على هذه الحال منذ شهرين . »

نظر فليسشمان (طويلا) إلى المدير وقال : « صدقا لا اعلم شيئا عن ذلك » واضاف : « على اية حال ، هذا لا يهمني .

قال هاقل متظاهرا بصرامة عنيفة : وكل احاديثك النبيلة ؟ وكل استنتاجاتك حول احترام المراة ؟ انت تؤلم إليزابيت ولا يهمك هذا ؟

ـ قال فليسشمان : اشعر بالشفقة حيال النساء ولا يمكنني ابدا إيذاءهن عمدا . لكن ما أقوم به من غير عمد لا يهمني لانه لا يسمني شيء حياله وبالتالي لست مسؤولا عنه . »

عادت إليزابيت بعد ذلك . كانت قد قررت بلا ريب ان افضل ما تقوم به هو نسيان الاهانة والتصرف كما لو انه لم يحدث شيء ، بحيث انها

http://nj180degree.com

كانت تتصرف بتكلف غريب . قدم لها المدير كرسيا وملأ كأسها . « اشربي يا إليزابيت ! وانسي كل الهموم !

ـ أجابت إليزابيت بابتسامة عريضة : بالتأكيد » وافرغت كاسها .

وخاطب المدير فليسشمان من جديد : « لو ان المرء ليس مسؤولا إلا عن الامور التي يعيها ، لكانت الحماقات مبرأة سلفاً عن كل إثم . لكن الانسان ملزم بالمعرفة يا عزيزي فليسشمان . الانسان مسؤول عن جهله . الجهل خطيئة . الذلك لا يمكن لشيء ان يبرئك ، واؤكد انك كنت تتصرف كشخص فظ مع النساء حتى لو انكرت ذلك » .

تقريظ الحب الافلاطوني :

عاود هاقل هجومه ضد فليسشمان فقال مذكراً إياه بالغزل العابث الذي كان يوجهه لاحدى الفتيات :

« هل حصلت اخيرا للآنسة كلارا على الشقة التي وعدتها بها ؟ »
(كلارا فتاة معروفة لهم جميعا)

« ليس بعد ، لكنني اهتم بذلك .

ـ قاطعت الدكتورة متخذة موقف الدفاع عن فليسشمان : سألفت انتباهك إلى ان فليسشمان مهذب مع النساء . لا يجلب لهن المتاعب .

ـ كرر طالب الطب : لا يمكنني احتمال ان يكون المرء فظاً مع النساء ، لانني اشعر بالشفقة عليهن .

ـ قالت إليزابيت لفليسشمان : على كل حال ، كلارا تجعلك تدفع الثمن غالياً » وقهقهت بضحكة غير لائقة بحيث ان المدير الفى نفسه مضطرا لاستئناف الكلام :

http://nj180degree.com

« غاليا أو رخيصا ، هذا أقل أهمية بكثير مما تظنين يا إليزابيت . فكما يعلم كل واحد ، كان أبيلارد مخصيا ، ولم يمنعه هذا من البقاء ، هو والويز ، عشيقين وفيين ، وحبهما خالد . عاشت جورج ساند طيلة سبع سنوات مع فريدريك شوبان ، طاهرة كعذراء ، وما زال الناس يتكلمون عن حبهما ! لا اريد ، في رفقة بمثل هذه الرفعة ، التذكير بحالة الماهرة الصغيرة التي منحتني أعظم شرف يمكن لامرأة أن تمنحه لرجل ، وذلك برفضها لي . لاحظي ذلك جيدا يا عزيزتي إليزابيت . توجد بين الحب وما تفكرين به دائما صلات أكثر هشاشة مما تتصورين. تأكدي أن كلارا تحب فليسشمان . إنها لطيفة معه ، لكنها تتمنع عنه . يبدو هذا لك غير منطقي ، لكن الحب هو بالضبط غير المنطقي .

— قالت إليزابيت ضاحكة من جديد ضحكة غير لائقة : لكن ماذا يوجد في هذا غير منطقي ؟ كلارا بحاجة إلى شقة ، ولذلك فهي لطيفة مع فليسشمان . لكنها لا ترغب بالنوم معه ، لأن لديها بالتأكيد شخص آخر تنام معه . لكن ليس بوسع ذلك الشخص الآخر تزويدها بشقة » .

في تلك اللحظة ، رفع فليسشمان رأسه وقال : « إنك تزعجينني . كأننا زمرة مراهقين . لعلها تتردد بدافع الحياء ؟ الم يخطر هذا على بالك ؟ أو لعلها تعاني من مرض تخفيه عني ؟ جرح يشوهها ؟ يوجد نساء يعتريهن حياء مخيف . تلك الامور فقط هي التي لا تفهمينها على ما يرام يا إليزابيت .

— قال المدير مقدما العون لفليسشمان : أو أن قلق العشق حَجّر كلارا أمام فليسشمان إلى درجة العجز عن مضاجعته . ليس بمقدورك يا إليزابيت تصور أنه بوسعك أن تحبي شخصا ما إلى درجة أنه يستحيل عليك النوم معه ؟

أكدت إليزابيت أن لا .

http://nj180degree.com

الإشـــارة :

يمكننا الآن التوقف لبرهة عن متابعة المحادثة (المغـــذاة باستمرار بالأخبار الهاذرة) لكي نوضح أن فليسشمان يبـــذل جهـــده للنظر في عيني الدكتورة منذ بداية الأمسية لانها كانت تعجبه على نحو مذهل منذ ان شاهدها لأول مرة (وقد مضى على هذا شهر) . كان جلال سنواتها الثلاثين يبهره . لم يكن قد شاهدها حتى الآن إلا على نحو عابر ، وكانت هذه الأمسية الفرصة الأولى التي سنحت له بالالتقاء معها لبعض الوقت في الحجرة نفسها . كان يشعر أنها تستجيب من حين لآخر لغمزاته ، وكان متأثراً من ذلك .

إذاً ، بعد تبادل النظرات ، نهضت الدكتورة فجأة ، ثم اقتربت من النافذة وقالت : « ما أجمل الجو في الخارج . هذا البدر ... » ومن جديد استقرت نظرتها عفويا على فليسشمان .

فهم فليسشمان الذي كان ذكيا في حالات من هذا النوع ان تلك كانت إشارة ، وإشارة موجهة له . وفي تلك اللحظة بالذات ، شعر أن موجة تثور في صدره . كان صـــدره في الحقيقة آلة حساسة جديرة بورشة ستراديفار ــ يوس(*) . كان يحدث له من حين لآخر ان يشعر بهذا الإحساس المثير وكان واثقاً في كل مرة من ان الموجة في صدره تحمل حتمية منذرة بقدوم أمر ما عظيم وخارق قد يتجاوز أحلامه .

في تلك المرة كان مذهولا من هذه الموجة وكذلك مندهشاً (في زاوية خفية من دماغه التي كانت تفلت من الذهول) : كيف كان يمكن لرغبته أن تحظى بمثل هذه القوة ، وأن يهرع الواقع بانقياد لنداء رغبته ؛ مفسحاً المجال لتحقيقها ؟ دون أن يكف عن الاندهاش من قدرته ، كان يترقب اللحظة التي سيصبح فيها النقاش أكثر حدة والتي سيفر فيها

(*) ستراديفاريوس : مخترع كمان .

http://nj180degree.com

من انتباه الفرمله . وما إن ارتأى أن تلك اللحظة جاءت ، حتى اختفى من القاعـة .

الشاب الوسيم المعقود الذراعين :

كان القسم الذي تجري فيه هذه المحاورة المرتجلة يشغل الطابق الأرضي من جناح جميل مبني (بالقرب من اجنحة أخرى) في حديقة المشفى الفسيحة . وإلى تلك الحديقة كان فليسشمان قد دلف لتوه . استند إلى جذع شجرة دلب واشعل سيكارة ، وتأمل السماء : كان الوقت في عز الصيف ، والعطور تعبق في الهواء ، والقمر الدائري معلقاً في السماء السوداء .

كان يرغم نفسه على تخيل الشخص الذي سيتبعه عما قليل : كانت الدكتورة التي اشارت له للتو بالخروج ستنتظر ان يستغرق أصلها في المحادثة أكثر من استغراقه في الشك ، ثم ستعمد بإحتشام إلى الإفصاح عن حاجة صغيرة خاصة تضطرها إلى التغيب لبرهة .

وماذا كان سيحدث بعد ذلك ؟ كان يفضل بعد ذلك أن لا يتخيل شيئاً . بدأت الموجة في صدره تنذر بمغامرة وكان هذا يكفيه . صار واثقاً من حظه ومن نجمة حبه ومن الدكتورة . كان وهـو يتملى باطمئنانه (اطمئنان ما زال حائراً قليلا) يستسلم لسلبية ممتعة ، لأنه كان دائماً يشاهد نفسه بملامح الرجل المغري والمرغوب والمحبوب ، وكان يروق له انتظار المغامرات بذراعين معقودين (بلباقة) . كان واثقاً أن الذراعين المعقودين يستثيران ويفتنان النساء والقدر .

من المهم بالتأكيد في هـذه المناسبة ملاحظـة انه كان يحـدث غالبـاً ، إن لم يكن دائمـاً ، لفليسشـمان أن يشاهد نفسه مصحوباً دوماً بقرين بحيث أن وحدته كانت تصبح مسلية تماماً . في ذلك المساء على سبيل المثال ، لم يكن وحسب مستنداً إلى شجرة دلب ويدخن ،

http://nj180degree.com

بل كان يراقب في الوقت نفسه بتلذذ ذاك الرجل (الوسيم والفتي) المستند إلى شجرة دلب ويدخن بلا مبالاة . استمتع طويلاً بهذا المشهد وانتهى إلى سماع خطوات رشيقة آتي صوبه من الجناح . تعمد أن لا يلتفت . سحب نفساً من سيكارته . ثم نفث الدخان وحدق عينيه في السماء . عندما أصبحت الخطوات قريبة جداً ، قال بصوت رقيق ومخادع : « كنت أعلم أنك ستأتين » .

التبـول :

أجابه المدير : « لم يكن شاقاً اكتشاف هذا . أفضل التبول في الطبيعة أكثر من التبول في المباني الحديثة الكريهة . هنا ، عما قليل ، سيربطني خيط دقيق مذهب باعجوبة مع التربة ، مع العشب والأرض . لأنني تراب يا فليسشمان ، وساعود إلى تراب خلال برهة ، جزئياً على الأقل . التبول في الطبيعة هو طقس نعد به الأرض بالعودة إليها ذات يوم كلياً » .

ظل فليسشمان صامتاً فساله المدير : « وانت ؟ جئت كي تنظر إلى القمر ؟ » ظل فليسشمان صامتاً بإصرار فاضاف المدير : « انت غريب الاطوار يا فليسشمان ، لذلك أحبك كثيراً » فسر فليسشمان كلمات المدير كسخرية وقال بنبرة كان يريدها جافة : « دعني وشاني مع القمر . انا أيضاً جئت إلى هنا لكي أتبول .

ـ قال المدير متأثراً : يا صغيري فليسشمان : أفسر هذا كدليل استثنائي على المحبة حيال رئيسك الكهل » .

واستقر كلاهما تحت شجرة الدلب لكي ينجزا عملية التبول التي كان المدير يشبهها بطقس بحماسة لا تكل وبصور متجددة باستمرار .

http://nj180degree.com

http://nj180degree.com

الفصل الثـاني

الشاب الوسيم الساخر :

كانا يعـودان عبر الممر الطـويل والمديـر يحتضن كتفي طالب الطب واثقا من ان هذا الاصلع الغيور قد كشف إشارة الدكتورة وانه يسخر منـه بمناجاته الودية ! لم يكن بوسـعه طبعا إزاحـة يد المدير عن كتفه ، ولم يزده ذلك إلا غيظا . ثمة امر وحيد يواسيه : ذلك انه كان ، وهو يغلي من الغضب ، يشاهد نفسه في هذا الغضب ، كـان يشاهد تعبير وجهه نفسه ، وكان مسرورا من هذا الشاب الحانق الذي يعـود إلى قاعـة المناوبة ، وبمباغتة عامـة ، سوف يبدو فجاة بشكل مختلف تماما : ساخرا ولاذعا وشيطانيا .

حين دخلا إلى قاعة المناوبة ، كانت إليزابيت تقف وسط الحجرة وتهز وركيها بشكل مخيف ، مترنمة بانغام لحن . كان الدكتور هائل يغض بصره فشرحت الدكتورة لكي تستدرك ذعر القادمين الجـدد : « اليزابيت ترقص .

ـ اضـاف هائل : إنها ثملة قليلاً » .

لم تكف إليزابيت عن هز خصرهـا ومماوجة صدرها امام وجه الدكتور هائل المطرق .

سال المدير : « أين تعلمت اذاً هذه الرقصة الجميلة ؟ »

http://nj180degree.com

اطلق فليسشمان المترع بالسخرية ضحكة علنية « اه ! اه ! اه ! رقصة جميلة ! اه ! اه !اه !

ـ ردت إليزابيته على المدير : انه مشهد رايته في حانة لرقص التعري في فيينا .

ـ اغتاظ المدير برقة : حسنا ، حسنا ، منذ متى تتردد ممرضاتنا على حانات لرقص التعري ؟

ـ قالت اليزابيت مماوجة صدرها حوله : هذا ليس ممنوعا رغم كل شيء ايها المدير ! »

كان الغيظ يتدفق في جسد فليسشمان باحثا عن مخرج فقال : « إنك في حاجة إلى البرومور وليس لتسكينك وليس لرقصة تعري . ستنتهين إلى الاعتداء علينا .

ـ قاطعت اليزابيت وهي تماوج صدرها حول الدكتور هاقل : انت ، ليس لديك شيء تخشى عليه . الادعياء البليدون لا يسلونني .

ـ سال المدير بود : وهل اعجبتك رقصة التعري تلك ؟

ـ اصدقك القول ! كانت توجد سويدية ذات نهدين كبيرين ، لكن لدي نهدين اجمل منهما بكثير ! (كانت تداعب صدرها وهي تقول هذا) وكانت توجد ايضا فتاة تتظاهر بالاستحمام في رغوة الصابون في حوض من الكرتون ، وخلاسية تمارس العادة السرية امام الجمهور ، هـذا هو افضل ما كان يوجد !

ـ قال فليسشمان دافعا التهكم الشيطاني إلى مداه : آه ! آه ! العادة السرية ، هذه بالضبط ما تحتاجين إليه ! »

http://nj180degree.com

حزن بشكل ردف :

كانت اليزابيت تواصل الرقص ، لكن جمهورها كان بالتأكيد جمهور اقل جمهرة بكثير من المشاهدين في حانة فيينا لرقص التعري : كان هاقل يطرق راسه والدكتورة تنظر بمكر وفليسشمان باستياء والمدير بتسامح ابوي . وكان ردف اليزابيت الذي يضيق عليه القماش الابيض لمئزر المرضة يعبر الحجرة كشمس مدورة على نحو رائع ، لكنها شمس منطفئة وخامدة (مغلفة بوشاح ابيض) . شمس تحكم عليها النظرات اللامبالية والمتضايقة للاطباء الحاضرين بعدم اكتراث مثير للرثاء

جاءت اللحظة التي ظنوا فيها ان اليزابيت توشك على خلع ملابسها بالفعل قطعة تلو اخرى ، بحيث ان المدير تدخل بصوت قلق : « لكن يا اليزابيت ! لسنا هنا في فيينا !

ـ مما تخاف ايها المدير !؟ ستعرف على كل حال ما هي عليه امراة عارية ! » اعلنت اليزابيت ثم التفتت من جديد نحو الدكتور هاقل وهددته بنهديها : « حسنا يا عزيزي هاقل ! ماذا يدور في هذا الراس؟ ارفع راسك ! هل مات أحد ؟ هل انت في حداد ؟ انظر إلي ! إنني حية لست على حافة الموت ! ما زلت نابضة بالحياة ! إنني اعيش ! » وحين كانت تقول هذا ، لم يعد ردفها ردفا بل الحزن نفسه ، حزن مجسم على نحو رائع كان يعبر القاعة راقصا .

قال هاقل وعيناه مسمرتان على الارضية الخشبية : « اعتقد ان هذا يكفي الآن يا إليزابيت .

ـ قالت إليزابيت : هذا يكفي ؟ لكنني ارقص لاجلك ! والآن ساقدم رقصة تعري ! رقصة تعري عظيمة ! » وفكت مئزرها المعقود على خصرها ، وبحركة راقصة ، القته على المكتب .

http://nj180degree.com

تكلم المدير من جديد وبخوف : « سيكون جميلا يا اليزابيت أن تقدمي لنا رقصة تعري ، لكن في مكان اخر . كما تعلمين ، نحن هنا في المشفى » .

رقصة التعري العظيمة :

اجابت اليزابيت : « أحسن التصرف أيها المدير ! » كانت في لباسها النظامي ، الأزرق الغامق ذي الياقة البيضاء ، وكانت تواصل التهزهز .

وضعت بعد ذلك كفيها على وركيها وزلقتهما على امتداد الجذع . رفعتهما فوق الراس ، ثم تسلقت يدها اليمنى على امتداد ذراعها اليسرى المرفوعة ويدها اليسرى على امتداد ذراعها اليمنى ، أنهت بعد ذلك حركة الاذرع باتجاه فليسشمان ، كما لو كانت تلقي صدارها عليه . شعر فليسشمان بالخوف وقفز ، فصاحت به : « ايها الطفل ، تركته يسقط ! »

أعادت بعد ذلك يديها إلى وركيها ، وزلقتهما على امتداد الساقين؛ رفعت الساق اليمنى ثم الساق اليسرى وهي منحنية . نظرت بعد ذلك إلى المدير وحركت الذراع اليمنى ملقية إليه بتنورتها الوهمية . مد المدير يده واحكم قبضته ، ثم ارسل إليها بيده الاخرى قبلة .

بضع هزات ايضا وبضع خطى ، ثم اقتعدت اليزابيت على رؤوس أصابعها ، ولوت ذراعيها إلى الخلف وتشابكت اصابعها وسط ظهرها . ثم سحبت الذراعين إلى الأمام بحركات راقصة ، وداعبت الكتف اليمنى باليد اليسرى والكتف اليسرى باليد اليمنى ، ومن جديد قامت بحركة ذراع رشيقة ، هذه المرة باتجاه الدكتور هاقل الذي بدوره رد بحركة خجلة ومتضايقة من يده .

http://nj180degree.com

لكن اليزابيت أخذت تتمشى الآن في الغرفة بعظمة ؛ راحت تستعرض مشاهديها الاربعة الواحد تلو الآخر ، رافعة أمام كل واحد منهم العري الرمزي لجسدها . توقفت في النهاية أمام هاڤل ، وأخذت تماوج وركيها ، ثم زلقت يديها على امتداد جلدها وهي تنحني بخفة ؛ عندئذ (كما منذ قليل) ، رفعت أولاً ساقاً ، ثم الأخرى ، وانتصبت بانتصار ، رافعة يدها اليمنى بالسروال الوهمي بين الابهام والسبابة. من جديد وبرشاقة ، قامت بحركة نحو الدكتور هاڤل .

كانت متفاخرة بعريها الوهمي ، لم تعد تنظر إلى احد ، ولا حتى إلى هاڤل . صارت تنظر إلى جسدها المتموج وعيناها نصف مغمضتين وراسها مائل جانبا .

تحطمت بعد ذلك وضعية الزهو وجلست اليزابيت على ركبتي الدكتور هاڤل . قالت متثائبة : « إنني منهكة » . امسكت كأس هاڤل وشربت جرعة . قالت لهاڤل : « دكتور ، اليس لديك اقراص لتنشيطي؟ فرغم كل شيء لن اخلد إلى النوم !

ـ قال هاڤل : لاجلك ، لدي كل ما تريدين يا اليزابيت ! » وانهضها عن ركبتيه واجلسها على الكرسي ثم توجه إلى الصيدلية . وجد فيها منوماً فعالاً فاعطى منه قرصين إلى اليزابيت .

سالت : « هذا سينشطني ؟

ـ مثلما أدعى هاڤل » قال هذا الاخير .

كلمات وداع إليزابيت :

عندما ابتلعت إليزابيت القرصين ، ارادت الجلوس ثانية على ركبتي هاڤل ، لكنه ابعد ساقيه فسقطت إليزابيت .

http://nj180degree.com

تاسف هامل لذلك في الحال ، لانه لم يكن يقصد توجيه هذه الإهانة إلى إليزابيت والحركة التي قام بها كانت بالاحرى رد فعل عفوي سببه النفور الصادق الذي يشعر به من فكرة تلامس ردف إليزابيت بفخذيه .

حاول إذاً إنهاضها ثانية ، لكن إليزابيت كانت تتشبث بالأرض بكل ثقلها ، بإصرار نحيبي .

استقر فليسشمان امامها : « انت ثملة وعليك الخلود إلى النوم » .

تأملته إليزابيت من اسفله إلى اعلاه باحتقار بالغ وقالت له (مستمتعة بماسوشية مؤثرة لوجودها على الأرض) : « وغد ، احمق » ومرة اخرى ايضا : « احمق » .

حاول هامل من جديد إنهاضها ثانية ، لكنها تخلصت بعنف وانفجرت بالبكاء . لم يجد احد شيئاً ليقوله وكان نحيب إليزابيت يرتفع كعزف كمان في الحجرة الصامتة . بعد برهة مديدة ، خطرت للدكتورة فكرة الصفير بلطف . نهضت إليزابيت بوثبة واتجهت نحو الباب ، وعندما وضعت يدها على القبضة ، التفتت وقالت : « اوغاد . اوغاد . ليتكم تعلمون . لكنكم لا تعلمون شيئاً . لا تعلمون شيئاً » .

مرافعة المدير ضد فليسشمان :

اعقب ذهاب إليزابيت صمت بادر المدير اولاً إلى قطعه : « كما ترى يا صغيري فليسشمان . انت تدعي الشفقة حيال النساء .. لكن إذا كنت تشعر بالشفقة حيال النساء ، لماذا لم تشعر بالشفقة حيال إليزابيت ؟

ـ أجاب فليسشمان : بماذا يعنيني هذا ؟

http://nj180degree.com

ـ لا تتظاهر بانك لا تعرف شيئا ! اخبرتك بذلك منذ قليل . إنها مولهة بك !

ـ سأل فليسشمان : هل أستطيع شيئا حياله ؟

ـ قال المدير : لا تستطيع شيئا حياله . لكنك فظ معها وتؤلمها ، وهذا تستطيع شيئا حياله . طيلة الامسية لم تكن تهتم إلا بأمر واحد ، بما كنتَ ستفعله ، وفيما إذا كنتَ ستنظر إليها وتبتسم لها وتقول لها كلمة لطيفة . وتذكرْ ما قلته لها !

ـ رد فليسشمان (لكن كان يوجد شك في صوته) : لم اقل لها شيئا مخيفا جداً .

ـ تهكم المدير : لا شيء مخيف جداً . سخرتَ منها حين رقصت مع انها لم ترقص إلا لاجلك ، نصحتها بتعاطي البرمور ، قلتَ لها بان ما كان يمكنها ان تقوم به على نحو افضل هو ممارسة العادة السرية . لا شيء مخيف ! حين قامت برقصة التعري تركتَ صدارها يسقط على الارض .

ـ احتج فليسشمان : اي صدار ؟

ـ قال المدير : صدارها . لا تتغابَ . وفي النهاية ارسلتها للنوم ، مع انها تناولت اقراص ضد التعب .

ـ دافع فليسشمان عن نفسه : لكنها سعت وراء هاثل !

ـ قال المدير بقسوة : لا تتخابث . ماذا كنت تريدها أن تفعل ، ما دمت لم تكن تهتم بها ؟ كانت تستفزك . ولم تكن ترغب إلا بشيء واحد ، شذرات من غيرتك . وبعد هذا تدعي انكَ جنتلمان !

http://nj180degree.com

ـ قالت الدكتورة : دعه وشانه الآن . إنه فظ لكنه فتي .

ـ قال هاڤل : إنه رئيس ملائكة العقاب » .

الادوار الميثيولوجية :

قالت الدكتورة : « أجل ، هذا صحيح . انظروا اليه : رئيس ملائكة وسيم ومخيف .

ـ لفت المدير الانتباه بصوت ناعس : إننا جمعية ميثيولوجية حقيقية ، لانك انت ، انتِ ديانا ، باردة ورياضية وخبيثة .

ـ قالت الدكتور : وانت ، أنت ستير(*) ، عجوز وخليع وثرثار ، وهاڤل هو دونجوان . ليس عجوزاً لكنه كهل .

ـ اجاب المدير عائداً إلى موضوعه منذ قليل : هيا إذاً ! هاڤل هو الموت »

نهاية الدونجوانات :

« إذا سألتموني هل أنا دونجوان او الموت ، عليّ ان اتبنى راي المدير ولو على مضض ، قال هاڤل وازدرد جرعة كبيرة . كان دونجوان فاتحا ، بل الفاتح . فاتحا عظيما . لكنني اسالكم كيف تريدونني ان اكون فاتحا في منطقة لا أحد يقاومكم فيها ، وكل شيء ممكن فيها ومباح ؟ انتهى عهد الدونجوانات . السليل الحالي لدونجوان لم يعد يغزو ، بل يجمع . شخصية الفاتح العظيم أعقبتها شخصية هاوي المجموعات العظيم ، لكن هاوي المجموعات لم يعد يشترك بشيء مطلقاً مع دنجوان .

(*) ستير : شخص خرافي نصفه الاعلى بشر ونصفه الادنى ماعز .

http://nj180degree.com

كان دونجوان شخصية تراجيدية . كان موصوماً بالخطيئة . كان يأثم بمرح ويسخر من الله . كان منجدفاً وانتهى إلى الجحيم .

« كان دونجوان يحمل على كاهله عبئاً تراجيدياً ليس لدى هاوي المجموعات العظيم أدنى فكرة عنه ، لأن كل ثقل في عالمه هو بلا وزن . استحالت الكتل الصخرية إلى زغب . كانت نظرة في عالم الفاتح تحوي ما تحويه الآن في عالم هاوي المجموعات عشر سنوات من الحب الجسدي الأكثر مواظبة .

«كان دونجوان سيداً ، بينما هاوي المجموعات عبد . كان دونجوان يخرق بوقاحة الأعراف والقوانين . هاوي المجموعات العظيم لا ينفك يساير بخضوع وبعرق جبينه العرف والقانون ، لأن تنظيم المجموعات أصبح من الآن فصاعداً جزءاً من التهذيب واللياقة ، صار تنظيم المجموعات يعتبر تقريباً بمثابة واجب . وإذ أشعر بنفسي مذنباً ، فهذا ، فقط » لأني لا آخذ إليزابيت .

« لا يربط هاوي المجموعات العظيم شيء بالتراجيديا ولا بالدراما . أصبح الشبق ، الذي كان أصل المصائب ، بفضله أمراً شبيهاً بالافطار أو العشاء ، بجمع الطوابع ، بلعبة كرة الطاولة أو التبضع في المخازن . أدخل هاوي المجموعات الشبق في الميدان المبتذل . صنع منه كواليس ومنصات مسرح لن تحدث فيه أبداً الدراما الحقيقية . وا أسفاه يا أصدقائي ، هتف هافل بنبرة مؤثرة ، غرامياتي (إذا سمحت لنفسي بتسميتها كذلك) هي منصات مسرح لا يحدث فيه شيء .

« يا عزيزتي الدكتورة ويا عزيزي المدير . إنتما قارنتما دونجوان بالموت ، كطرفي تناقض . وهكذا كشفتما جوهر المشكلة بمحض الصدفة وسهواً . أنظروا ؛ كان دونجوان يجابه المستحيل . وهذا ما يعتبر إنسانياً إلى درجة كبيرة . وبالمقابل ، لا شيء يستحيل في مملكة هاوي المجموعات العظيم ، لأنها مملكة الموت . هاوي المجموعات العظيم ، هو

http://nj180degree.com

الموت الذي جاء يسعى بنفسه إلى التراجيديا والدراما والحب . الموت الذي جــاء يسعى إلى دونجوان . دونجوان حي في النار الجهنميــة التي أرسله إليها الكومندور . اما في عالم هاوي المجموعات المظيم الذي ترفرف في فضائه الشهوات والمشاعر كريشة ، في ذاك العالم ، دونجوان ميت حتماً .

« هيا إذاً يا سيدتي العزيزة ، قال هافل بحزن ، أنا ودونجوان ! هذا ما قد اقدمه لكي أرى الكومندور ، لكي أحس فوق روحي بالثقل الفظيع للفتنة ، لأشعر بتزايد عظمــة التراجيديا في نفسي ! هيــا إذاً يا سيدتي ، إنني في أحســن الأحوال ، شخصية كوميدية ، وحتى هذه لا ادين بها لنفسي ، بل إلــى دونجوان شخصيا ، لأنه على الخلفيــة التاريخية لمسرحه التراجيدي ، وحسب، يمكنكم أيضا أن تفهموا، بطريقة ما ، الكوميديا الحزينة لوجودي كمطارد للنساء ، الوجود الذي بدون هذه العلامة ليس إلا رتابة تافهة ، ومشهد طبيعي ممل » .

إشــارات جديدة :

سكت هافل بعد أن تعب من هــذه الخطبة المسهبة (التي ترك المدير الناعس رأسه أثناءها ، يسقط على صدره مرتين) تكلمت الدكتورة بعد فترة صمت مفعمة بالتأثر : « لم اكن اعلم يا دكتور انك خطيب فصيح . وَصَنَّفْتَ نفسك بسمات شخصية كوميدية ، رتيبة وضجرة ، كأنك عديم الشأن ! ومع الأسف كانت الطريقة التي عبرت بها فائضة النبل قليلاً . إنها لباقتك اللعينة : تصف نفسك بالمتسول ، لكنك تختار لهذه الغاية كلمات أميرية ، لكي تصبح رغم ذلك أميراً أكثر من كونك متسولاً . إنك غشاش عجوز يا هافل . مزهو حتى في اللحظات التي تتمرغ بها في الطين . إنك غشاش قديم ودنيء » .

قهقه فليشمان بضحكة رنانة لأنه كان يظن في غمرة بهجته انه تشف في كلمات الدكتورة عن الاحتقار حيال هافل ، لذلك اقترب من

http://nj180degree.com

النافذة متشجعا من سخرية الدكتورة ومن ضحكته الخاصة وقال بنغمة ممدودة : « يا له من ليل !.

ــ قالت الدكتورة : اجل . ليل ساطع . وهاقل يمثل دور الموت! هل لاحظت فقط ياهاقل ان جو الليل ساحر ؟

ــ قال فليسشمان : طبعا لا . المراة هي المراة والليل يعادل ليلا آخر ، الشتاء والصيف هما الشيء نفسه . الدكتور هاقل يرفض التمييز بين الصفات الثانوية .

ــ قال هاقل : لقد كشفتني تماما » .

خمن فليسشمان ان موعده هذه المرة مع الدكتورة سيكون ناجحا : كان المدير قد شرب كثيراً وكان النعاس الذي بدا يستسلم له منذ بضعة دقائق يبدو انه يضعف يقظته كثيراً . قال فليسشمان باحتشام « اوه ! مشاتتي » وتوجه نحو الباب بعد ان رمق الدكتورة بنظرة .

الغاز :

فكر ايضا في الممر بسرور ان الدكتورة امضت الامسية في السخرية من الرجلين ، المدير وهاقل الذي وصفته للتو بكثير من اللباقة بالغشاش، واذهلته رؤية حالة متكررة كانت تدهشه كل مرة ، تماما لانهـا تتكرر بمثل هذا الانتظام : كان يعجب النساء وكن يفضلنه على الرجال المجربين، وهذا ما كان يشكل في حالة الدكتورة ــ وهي بوضوح امرأة متشددة فوق العادة ، ذكية ومتعجرفة (لكن بظرف) ــ انتصارا جديداً ومفاجئا .

اجتاز فليسشمان الممر الطويل وهو في تلك الحالة النفسية وتوجه نحو المخرج . كان قد وصل تقريباً إلى الباب الذي يفضي إلى الحديقة ، حين خرشت فجاة منخريه رائحة غاز . توقف وشم . كانت منبعثة من الباب الذي يفصل الممر عن حجرة استراحة المرضات الصغيرة . ادرك فليسشمان فجاة انه يشعر بخوف شديد .

http://nj180degree.com

كانت حركته الأولى هي الركض للبحث عن المدير وهائل ، لكنه قرر بعد ذلك وضع يده على مقبض الباب (بالتأكيد لأنه كان يفترض أن الباب سيكون موصداً ومغلقاً بالرتاج) . لكن الباب انفتح في غمرة دهشته . كان مصباح السقف مضاء وينير جسد امرأة عارياً وممدداً على الأريكة . ألقى فليسشمان نظرة دائرية عبر الحجرة ووثب نحو سخان صغير . أدار صنبور الغاز الذي كان مفتوحاً . ثم هرع إلى النافذة وفتحها على مصراعيها .

ملاحظة بين قوسين :

(يمكن القول أن فليسشمان تصرف برباطة جأش وبالتالي بسرعة بديهة . مع ذلك ثمة أمر لم يلاحظه بما يكفي من رباطة الجأش . طبعاً ، ظل محدقاً لبرهة مديدة في جسد إليزابيت العاري ، لكن كان يعتريه خوف كبير بحيث أنه لم يستطع ، خلف حجاب هذا الخوف ، تبين ما يمكننا الآن الإستمتاع به بمنتهى التمهل ، مستفيدين من استرجاع مفيد .

كان هذا الجسد بهياً . كان مستلقياً على الظهر والرأس مائل قليلاً ، الكتفان متقاربان نوعاً ما ، والنهدان الجميلان يتزاحمان كاشفين عن شكلهما المكتنز . إحدى الساقين ممدودة والأخرى مثنية برشاقة بحيث كان بوسع المرء أن يشاهد امتلاء الفخذين الملفت للنظر ، واللون الأسود المعتم لشعر العانة الكث للغاية) .

طلب النجدة :

بعد أن فتح فليسشمان النافذة على مصراعيها والباب ، وثب إلى الممر ونادى للمساعدة . وما أعقب ذلك جرى بفعالية ناجعة : تنفس اصطناعي ، مكالمة هاتفية لقسم الإسعاف ، وصول عربة نقل المرضى ، تسليم المريضة للطبيب المناوب ، جلسة تنفس اصطناعي جديدة ، عودة للحياة ، نقل دموي وفي النهاية ، تنفس الصعداء حين اتضح أن حياة إليزابيت انقذت .

http://nj180degree.com

الفصـــل الثـــالث

كل واحد قال شيئاً :

حين خرج الاطباء الاربعة من قسم الإسعاف والقوا انفســـهم في الساحة ، كانوا يبدون منهكين .

ـ قال المدير : « لقـد افسدت علينـا حوارنـا تلك الصـغيرة إليزابيت » .

ـ قالت الدكتورة : « النساء غير الراضيات يجلبن النحس دوماً» .

ـ قال هاقل : « هذا غريب . ترتب عليها ان تفتح الغاز لكي نتبين انها جميلة القوام » .

عند هذه الكلمات ، نظر فليسشمان (ملياً) الى هاقـل وقال : « لم تعد لدي رغبة بالشرب ولا بالمسامرة . طابت ليلتكم » وتوجه نحو مخرج المشـفى .

نظرية فليسشمان :

كان فليسشمان يشعر بالإشمئزاز من أحاديث زملائه . كان يرى فيهـا برودة الرجـال والنساء المتقدمين في السن ، وقساوة عمرهم التي تنتصب امام شبابه كحاجز منيع . لذلك كان يستمتع لانه وحيد وكان يذهب ماشياً عمداً لكي يتذوق نشوته تماماً : لم يكن يكف بخوف

http://nj180degree.com

علب عن ترداد أن إليزابيت أشرفت على الموت وأنه كان المسؤول عن ذلك .

لم يكن يجهل بالطبع أن الانتحار ينجم عادة عن كوكبة كاملة من الأسباب وليس عن سبب واحد ؛ لكنه لم يكن بوسعه إنكار أن أحد تلك الأسباب ، وبلا ريب السبب الحاسم ، كان هو ، لمجرد وجوده وسلوكه اليوم .

صار يتهم نفسه الآن بطريقة مؤثرة . أخذ يقول لنفسه بأنه كان أنانياً في النظرة المزهوة المسمرة على نجاحاته الغرامية . كان يتخيل نفسه مضحكاً لأنه ترك نفسه ينبهر بالاهتمام الذي أظهرته له الدكتورة. كان يلوم نفسه لأنه جعل من إليزابيت مجرد شيء ، وإناء استخدمه لصب جام غضبه عندما اعترض المدير الغيور موعده الليلي . بأي حق عامل مخلوقة بريئة بهذا الشكل ؟

مع ذلك لم يكن طالب الطب الشاب انساناً سلاجاً ؛ فكل واحدة من حالاته النفسية كانت تتضمن في ذاتها جدل التأكيد والنفي ، بحيث أن صوت المتهم الداخلي صار يرد الآن على صوت المدافع الداخلي : كانت السخريات التي وجهها الى اليزابيت غير لائقة حتماً ، لكنها بالتأكيد ما كانت لتستتبع نتائج بمثل هذه التراجيدية لو لم تكن اليزابيت قد تيممت به . والحال هذه ، هل كان بوسع فليسشمان فعل شيء إذا كانت امرأة مغرمة به ؟ وهل يصبح مسؤولاً بشكل آلي عن تلك المرأة ؟

توقف عند هذا السؤال الذي كان يبدو له المفتاح لكل سر الوجود الانساني . توقف حتى عن المشي وصاغ الاجابة الأكثر جدية في العالم : أجل كان قد اخطأ منذ قليل حين قال للمدير بأنه غير مسؤول عما يسببه بغير علمه ، هل كان بمقدوره فعلا اختصار شخصيته الى ما كان يدركه ويعيه ؟ ألم يكن أيضاً جزءاً من دائرة شخصيته ما كان يحكم بغير وعي ؟ وأي شخص غيره يمكنه أن يكون مسؤولا عن ذلك ؟ أجل ، كان مذنباً ؛

http://nj180degree.com

مذنباً بحب إليزابيت له ؛ مذنباً لجهله هذا الحب ؛ مذنباً لرفضه له ؛ مذنباً . ولولا قليل ، لقتل كائناً إنسانياً .

نظرية المدير :

بينما كان فليشمان يستسلم لمحاسبة نفسه ، كان المدير وهاقل والدكتورة يعودون إلى قاعة المناوبة . لم يعد لديهم بالفعل رغبة في الشرب ؛ فلزموا الصمت لبعض الوقت ؛ ثم قال الدكتور هاقل : « ما الذي امكنه ان يدور في رأس اليزابيت » ؟

ـ قال المدير : ليست حالة عاطفية . حين يرتكب شخص ما حماقات من هذا النوع ، امنع نفسي من اي انفعال . وفضلا عن ذلك ، لو لم تكابر ولو انك فعلت معها مالا تتردد بفعله مع جميع النساء الاخريات ، لما حدث هذا .

ـ قال هاقل : اشكرك على تحميلي مسؤولية انتحار .

ـ اجاب المدير : لنكن دقيقين . ليس المقصود انتحاراً ، بل المقصود حفل انتحاري مدبر بحيث يتفادى الكارثة . عزيزي الدكتور ، عندما يريد المرء خنق نفسه بالغاز يبدأ بإغلاق الباب بالمفتاح . والأجدر من هذا ، ان يهتم المرء بسد كل الشقوق لكي يتم تأخير اكتشاف وجود الغاز ما امكن . لكن اليزابيت لم تكن تفكر في الموت ، كانت تفكر بك .

« الله اعلم منذ كم من الاسابيع كانت تستمتع بفكرة انها ستكون برفقتك في المناوبة الليلية ، ومنذ بداية الأمسية ركزت انتباهها عليك بفجور . لكنك عاندت . وكلما امعنت في عنادك ، امعنت هي في الشرب وامعنت في إظهار اغرائها : تكلمت ورقصت وارادت القيام برقصة تعري ...

http://nj180degree.com

« انتبه ، اتساءل فيما إذا كان لا يوجد رغم كل شيء أمر ما مؤثر في ذلك. حين ادركت انه لم يكن بوسعها جذب انظارك ولا سمعك، راهنت بكل شيء على حاسة شمك وفتحت الغاز . وقبل أن تفتح الغاز خلعت ملابسها . فهي تعلم بأن لديها جسداً جميلا ، وأرادت إرغامك على التأكد بنفسك من ذلك . تذكر ما قالته وهي تغادر : ليتكم تعلمون . إنكم لا تعلمون شيئاً . لا تعلمون شيئاً . ها أنت تعلم الآن ان لإليزابيت وجهاً قبيحاً لكن لها جسداً جميلا . تأكدت من ذلك بنفسك . انك تدرك أن محاكمتها ليست متهافتة جداً . واتساءل فيما إذا ستستلم الآن » .

هز هاقل كتفيه وقال : « هذا ممكن

ـ قال المدير : إنني واثق من ذلك » .

نظرية هاقل :

« أيها المدير ، ما تقوله قد يبدو مقنعاً ، لكن ثمة عيب في محاكمتك : إنك تبالغ تقدير دوري في هذه القضية . لانني لست المقصود . فرغم كل شيء لست الوحيد الذي رفض النوم مع إليزابيت. لم يكن أحد يرغب بالنوم معها .

« منذ قليل ، حين سألتني لماذا لم أكن اريد الحصول على اليزابيت ، أجبتك بهذيانات ما عن روعة حرية الاختيار وعن حريتي التي أحرص على الحفاظ عليها . لكنها لم تكن سوى أقوال عابثة هادفة لتمويه الحقيقة التي هي جد مختلفة وليست جميلة إطلاقاً : فلماذا رَفَضْتُ إليزابيت ، فذلك لانني عاجز عن التصرف كرجل حر ، لان الدَرَجَة السائدة هي عدم النوم مع إليزابيت . لا أحد ينام معها ، ولو نام معها ، لما اعترف بذلك ابداً لان كل الناس كانوا سيسخرون منه . الدَرَجَة هي تنين مخيف وقد أذعنت لها بخضوع . لكن إليزابيت امرأة

http://nj180degree.com

ناضجة ، وهذا ما أطار صوابها . وربما ما أطار صوابها أكثر من كل شيء هو أنني أرفضها ، لأن الجميع يعلم بأنني آخذ كل شيء . لكن الدَرّجَة أغلى عندي من صواب إليزابيت .

« وانت محق أيها المدير : إنها تعلم بأن لها جسداً جميلا ، وكانت تحسب أن هذا الوضع غير معقول وجائر فأرادت الاحتجاج . تذكر أنها لم تكف طيلة الامسية عن جذب الانتباه الى جسدها . عندما تكلمت عن راقصة التعري السويدية التي شاهدتها في فيينا ، داعبت نهديها واعلنت انهما اجمل من نهدي الراقصة السويدية . وتذكر : اجتياح نهداها وردفها هذه الحجرة طيلة الأمسية كجمهور متظاهرين . أتكلم جاداً أيها المدير ، كانت مظاهرة .

« وتذكر رقصة تعريها ، تذكر كيف كانت تؤديها ! أيها المدير ، انها رقصة التعري الاكثر حزناً التي شاهدتها حتى الآن . كانت تتعرى بانفعال ، لكن دون أن تتحرر من الرداء المقيت لزيها كممرضة ، كانت تتعرى ، لكنها لم تكن تستطيع التعري . ومع انها تعلم تماماً بأنها لن تتعرى ، كانت تتعرى لأنها كانت تريد أن تبلغنا حزنها والرغبة الخيالية بالتعري . أيها المدير ، لم يكن ذلك تعرياً ، بل كان اغنية رثاء التعري ، اغنية عن استحالة التعري ، عن استحالة ممارسة الحب ، عن استحالة الحياة ! وحتى هذا ، لم نرغب بسماعه ، كنا نطاطيء رؤوسنا ونتظاهر بعدم الإكتراث .

ـ هتف المدير : اوه ، زير رومانسي ! هل تعتقد حقاً انها كانت تريد الموت ؟

ـ قال هافل : تذكر ما قالته لي وهي ترقص ! قالت لي : مازلت حية ! ما زلت نابضة بالحياة ! هل تتذكر ؟ منذ اللحظة التي بدأت فيها بالرقص ، كانت تعلم ما ستفعل .

ـ ولماذا ارادت أن تموت عارية تماما ، لماذا ؟ كيف تفسر ذلك ؟

http://nj180degree.com

ــ كانت تريد الدخول الى احضان الموت كما تدخل الى احضان عاشق . لهذا تعرت وصففت شعرها وتجملت ...

ــ ولهذا لم تقفل الباب بالمفتاح ، اليس كذلك ؟ ارجوك ، لا تحاول إقناع نفسك بانها كانت تريد الموت حقاً .

ــ لعلها لم تكن تعلم بالضبط ما تريد . هل تعلم انت نفسك ماذا تريد ؟ من منا يعلم ما يريد ؟ كانت تريد الموت ولم تكن تريده . كانت تريد الموت بمنتهى الصدق، وكانت تريد في الوقت نفسه (بمنتهى الصدق أيضاً) إرجاء التنفيذ الذي يقودها الى الموت ، والذي كانت تشعر بعظمته . انت تدرك تماماً أنها لم تكن تريد أن يشاهدها أحد عندما ستصبح شاحبة تماماً وعفنة ومشوهة من الموت . كانت تريد أن تبدي لنا جسدها ، الجميل جداً ، والمبخس القدر كثيراً ، الذي كان ينطلق بكل ابهته للتزاوج مع الموت ؛ كانت تريد في تلك اللحظة الحاسمة على الأقل أن نرغب بذلك الجسد في الموت وأن نشتهيه .. » .

نظريــة الدكتورة :

بدأت الدكتورة التي كانت قد سكتت حتى ذلك الحين واصغت بانتباه الى الطبيبين : « يبدو لي ما قلتماه كلاكما منطقي ، كما يمكن لإمرأة تصوره . ونظريتاكما بحد ذاتها مقنعتان بما فيه الكفاية وتنمان عن معرفة عميقة بالحياة . ليس فيهما إلا عيب واحد هو انهما لا تحتويان على ذرة حقيقة . لم تكن اليزابيت تفكر في الانتحار ، لا في الانتحار الحقيقي ولا في الانتحار المصطنع . ولا في اي انتحار » .

استمتعت الدكتورة لبرهة بتأثير كلماتها وتابعت : « سادتي ، من الواضح انكما تشعران بالإثم . حين عدنا من قسم الاسعاف ، تجنبتما حجرة الراحة . لم تكونا تريدان رؤيتها ثانية . اما انا فقد تفحصتها بعناية بينما كنتما تقومان بإجراء التنفس الاصطناعي لإليزابيت . كانت

http://nj180degree.com

توجد ركوة قهوة على السخان . وضعت اليزابيت الماء للتسخين كي تعد لنفسها قهوة ، وغفت . على الماء واطفأ اللهب » .

عاد الطبيبان الى حجرة الراحة مع الدكتورة . كان ذلك صحيحاً ، كانت توجد ركوة قهوة على السخان وحتى بقي عليه قليل من الماء .

دهش المدير وقال : « لكن في هذه الحالة ، لماذا كانت عارية تماماً؟

ـ قالت الدكتورة : انظر جيداً » واشارت الى زوايا الحجرة : كان الثوب الازرق الشاحب منشوراً على الارض تحت الناقلة ، وكانت حمالة النهدين تتدلى معلقة على الصيدلية ، والسروال الداخلي الأبيض القي ارضاً في الزاوية المقابلة . « رمت إليزابيت ملابسها في كل الزوايا ، وهذا ما يثبت انها ارادت ولو لوحدها إجراء حفلة رقصة التعري التي ارتايت ايها المدير ان من الحكمة منعها !

« عندما تعرت تماماً ، شعرت بنفسها متعبة بدون شك . لم يكن هذا يوافقها ، لانها لم تكن قد تخلت عن آمالها في هذه الليلة . كانت تعلم اننا ستغادر في النهاية وان هاقل سيبقى وحيداً . لهذا طلبت اقراصاً منشطة . كانت تريد أن تحضر لنفسها القهوة فوضعت الركوة على السخان . بعد ذلك ، نظرت من جديد إلى جسدها ، فاثارها ذلك . يا سادتي ، كانت لدى إليزابيت مزية عليكما . لم تكن ترى رأسها . كانت إذا بالنسبة لنفسها جميلة بدون عيب . اثارها جسدها فتمددت على الاريكة بشهوانية . لكن من الواضح أن النعاس فاجأها قبل اللذة .

ـ قال هاقل : بالتأكيد . لا سيما انني أعطيتها منومات !

ـ قالت الدكتورة : هذا من لطفك . إذاً ، هل يوجد شيء ايضاً غير واضـــح ؟

http://nj180degree.com

ـ قال هاڤل : اجل ، تذكري ما قالته لنا : لست على حافة الموت! ما زلت نابضة بالحياة ! أنا اعيش ! وهذه الكلمات الأخيرة : ليتكم تعلمون شيئاً . لكنكم لا تعلمون شيئاً . قالتها بطريقة مؤثرة جداً ، كما لو كانت كلمات وداع .

ـ قالت الدكتورة : هيا يا هاڤل . كأنك لا تعلم بأن تسعاً وتسعين في المائة من الكلمات التي يتفوه بها المرء هي كلمات عابثة . هل تتكلم انت نفسك في معظم الاحيان لأجل شيء آخر غير الكلام ؟ » .

ثرثر لأطباء لبعض الوقت ايضاً ، ثم خرجوا ، صافح المدير والدكتورة هاڤل وابتعدا .

كان الأريج يعبق في النسيم الليلي :

وصل فليسشمان اخيراً الى طريق الضاحية التي يسكن فيها عند والديه في ڤيلا صغيرة محاطة بحديقة . فتح الشباك ، ودون ان يذهب الى باب المدخل ، جلس على مقعد تنحني فوقه ورود رعتها والدته بعناية .

كان الأريج يعبق في نسيم الصيف الليلي وكلمات « مذنب » « انانية » « محبوب » ، « موت » تدور في صدر فليسشمان وتملؤه بسعادة غامرة . كان يشعر أن اجنحة تنمو له في ظهره .

أدرك في هذا الفيض من البهجة الحزينة انه كان محبوباً كما لم يكن كذلك قط . بالطبع كانت عدة نساء قد قدمن له آنفاً براهين ملموسة على مشاعرهن ، لكنه صار يرغم نفسه الآن على الصراحة القاسية : هل كان ذلك دوماً حباً ؟ ألم يكن يستسلم للأوهام ؟ ألم يكن يحدث له أن يتخيل اكثر مما هو موجود في الحقيقة ؟ ألم تكن كلارا على سبيل المثال منتفعة اكثر من كونها عاشقة ؟ ألم تكن تحرص على الشقة التي كان على وشك ان يزودها بها اكثر مما كانت تحرص عليه ؟ كان كل شيء يبدو باهتاً إزاء تصرف إليزابيت .

http://nj180degree.com

اخذت كلمات كبيرة تعبق في الهواء وراح فليسشمان يقول لنفسه بانه ليس للحب سوى معيار وحيد : الموت . في غاية الحب الحقيقي يوجد الموت ، ووحده الحب الذي يوجد الموت في غايته هو الحب .

بدا الاريج يعبق في النسيم وصار فليسشمان يتساءل : اي انسان سيحبه يوما مثل تلك المراة القبيحة ؟ لكن ما هو الجمال والقبح إزاء الحب ؟ ما هو قبح الوجه إزاء عاطفة كان سموها يعبر عن المطلق ؟

(المطلق ؟ اجل . فليسشمان هو مراهق القرية ، منذ قليل في عالم الراشدين المضطرب . يبذل ما بوسعه لكي يغوي النساء ، لكن ما يبحث عنه هو على الأخص الاحتضان المواسي ، الأبدي ، المخلّص ، الذي سينقذه من النسبية الفظيعة لعالم اكتشفه حديثا) .

* * *

http://nj180degree.com

http://nj180degree.com

الفصل الرابع

عودة الدكتورة :

كان الدكتور هاڤل مستلقياً منذ بضع لحظات على الأريكة ، تحت غطاء قطني رقيق ، حين سمع طرقات على الزجاج . لمح وجه الدكتورة في ضوء القمر . فتح النافذة وسأل : « ماذا يحدث ؟ » .

ـ قالت الدكتورة : افتح لي ، وتوجهت بمشية رشيقة نحو باب الجنـاح .

زرر هاڤل قميصه ، ثم اطلق تنهيدة وخرج من الحجرة .

عندما فتح باب الجناح ، تقدمت الدكتورة دون أن تعطي مزيداً من الايضاحات ، وحين جلست على مقعد في قاعة المناوبة ، مقابل هاڤل ، اخذت تشرح بانها لم تستطع العودة إلى منزلها ، وانها شعرت بالقلق على نحو مخيف ، وانها لن تستطيع النوم وكانت تلتمس من هاڤل حديثاً قصيراً آخر لكي تسترد هدوءها .

لم يكـن هاڤل يصـدق كلمة واحـدة مما تقوله الدكتورة وكان على درجة من التهذيب (أو التهور) كافية من أجل أن يظهر ذلك .

لهذا قالت له الدكتورة : « بالتأكيد انت لا تصدقني ، لأنك واثق من انني لم آت إلا للنوم معك » .

http://nj180degree.com

أومأ الدكتور بالنفي ، لكن الدكتورة تابعت : « طبعاً ، دونجوان مغرور ! حالما تشاهدك امرأة ، فانها لا تفكر الا بهذا . وأنت ، تنجز مهمتك البائسة مكرهاً ومشمئزاً » .

أومأ هاقل من جديد بالنفي ، لكن الدكتورة تابعت بعد أن اشعلت سيكارة ونفثت الدخان بلا مبالاة : « مسكيني دونجوان ، لا تخش شيئاً . لم آت لكي ازعجك . لا شيء مشترك بينك وبين الموت . كل ذلك ليس إلا مفارقات عزيزنا المدير . فانت لا تحصل على كل شيء ، لسبب وجيه هو أنه ليست كل النساء مستعدات للاستسلام . فانا على سبيل المثال محصنة تماماً ضدك ، يمكنني أن أعدك بذلك .

ـ أهذا ما جئت لتقوليه لي ؟

ـ ربما . جئت لأواسيك ، لأقول لك بانك لست كالموت . وانني لن اترك نفسي عرضة للاستيلاء . » .

أخلاقية هاقل :

قال هاقل : « هذا لطف منك ، لطف الا تستسلمي وان تاتي لتقولي لي ذلك . انك محقة ، لا يربطني شيء مع الموت . فالامر ليس فقط اني لن احصل على إليزابيت ، بل لن أحصل عليك أيضاً .

ـ علقت الدكتورة : أوه !

ـ لا أعني بذلك لا تعجبينني . بالعكس تماماً .

ـ قالت الدكتورة : رغم كل شيء .

ـ اجل . انت تعجبينني كثيراً .

ـ إذاً ، لماذا لا تريد الحصول عليّ ؟ هل لانني لا اهتم بك ؟

http://nj180degree.com

ـ قال هاڤل : لا ، اظن أن لا علاقة لهذا .

ـ إذاً ، لماذا ؟

ـ لأنك عشيقة المدير .

ـ وبعد ؟

ـ المدير غيور ، قد يحزنه هذا .

ـ قالت الدكتورة ضاحكة : وهل لديك هواجس ضمير ؟

ـ قال هاڤل : كما تعلمين ، لدي الكثير من المغامرات الغرامية مع النساء في حياتي، بحيث انني لا اقدر، نتيجة لها ، إلا الصداقة الذكورية هذه الصداقة التي لا تلطخها حماقة الشهوانية هي القيمة الوحيدة التي عرفتها في حياتي .

ـ هل تعتبر المدير بمثابة صديق ؟

ـ لقد فعل المدير الكثير من أجلي .

ـ اجابت الدكتورة : وفعل ايضاً الاكثر لاجلي .

ـ قال هاڤل : هذا ممكن ، لكن ليس المقصود امتنان ، إنه صديق وهذا كل ما في الأمر . انه رجل رائع . ويحرص عليك . لو حاولت الحصول عليك ، لاضطررت لاعتبار نفسي وغداً » .

المدير المستقبل :

قالت الدكتورة : « لم اكن اتوقع ان اسمع من فمك مثل هذا التقريظ المتحمس جداً للصداقة ! اكتشف فيك مظهراً جديداً تماماً

http://nj180degree.com

بالنسبة لي وغير متوقع مطلقاً . لا تتمتع وحسب ، على غير المتوقع ، بملكة الحس ، لكنك تستخدم هذه الملكة (وهذا مؤثر جداً) حيال سيد مسن، أشيب ومنتوف الريش لا يتبين المرء فيه إلا المضحك. هل لاحظت ذلك منذ قليل ؟ هل شاهدت كيف يستلفت الانظار باستمرار ؟ يريد أن يبرهن دائماً على أمور لا يمكن لاحد تصديقها .

« يريد ان يبرهن أولا على انه ظريف . انت سمعته . امسى الامسية في الكلام لكي لا يقول شيئاً ، كان يسلي المتفرجين ، ويعبر بكلام بارع مثل : الدكتور هاقل كالوت ، ويختلق المفارقات من بؤس الزواج السعيد (ما ينوف عن المائة مرة وانا اسمعه يردد هذه النغمة !) كان يحاول خداع فليسشمان (كان ذلك يقتضي الظرف) .

« يريد ثانياً أن يحتسب شخصاً شهماً . وفي الحقيقة ، يمقت اي شخص ما يزال لديه شعر على رأسه ، لكنه يضمر العداء في نفسه . كان يمدحك ويمدحني وكان ابوياً ورقيقاً مع إليزابيت ، وحين خدع فليسشمان حرص على الا يتبين فليسشمان ذلك .

« ثالثاً وهو الأهم ، يريد البرهنة على انه لا يقاوم ، يحاول بياس إخفاء سحنته اليوم تحت مظهره القديم ، الذي لم يعد موجوداً مع الأسف والذي لم يعد أي منا يتذكره . هل شاهدت كيف تذرع به بمهارة لكي يقص علينا حكاية تلك العاهرة الصغيرة التي لم تكن ترغب به ، فقط لكي يستحضر من تلك المناسبة وجهه القديم وينسى هكذا صلعه المحزن»

دفاعاً عن المدير :

اجاب هاقل : « كل ما تقولينه صحيح تقريباً يا سيدتي العزيزة . لكني لا أرى في ذلك إلا اسباباً إضافية واسباباً وجيهة لحب المدير ، لان كل هذا يخصني اكثر مما تظنين . لماذا تريدينني أن أسخر من صلع لن افلت منه ؟ لماذا تريدينني أن اسخر من ذلك الجهد المثابر للمدير كي لا يكون ما هو عليه ؟ .

http://nj180degree.com

« أما ان يقبل رجل عجوز البقاء على ما هو عليه ، أي هذه الفضلة المثيرة للرثاء من نفسه ، أو لا يقبل . لكن ماذا عليه أن يفعل إن لم يقبل ؟ لا يبقى أمامه إلا التظاهر بأنه ليس ما هو عليه ، لا يبقى أمامه سوى أن يخلق بواسطة التصنع المضني ، ما لم يعده وما ضيعه ، أن يختلق فرحه وحيويته ووديته . باحياء صورة شبابه والسعي للاندماج بهـا واستبدالها بنفسه . إنني أرى نفسي في كوميديا المدير هذه ، فهو صورة مستقبلي . هكذا يبقى لي ما يكفي من القوة لرفض الاستسلام الذي هو بالتأكيد شر اسوأ من تلك الكوميديا المحزنة .

« ربما انت على دراية بلعبة المدير . لكنها لا تزيدني الا محبة له، ولن استطيع ابداً إيلامه ، وهو ما ينجم عنه انني لن استطيع ابـداً النوم معك » .

جـواب الدكتورة :

اجابت الدكتورة : « عزيزي الدكتور ، توجد اختلافات بيننا اقل مما تظن . انا ايضا احبه . انا ايضا اشفق عليه ، تماما مثلك . ومديتة له اكثر منك . فلولاه ، فلولاه ، لما حصلت على مثل هذه الوظيفة الجيدة (أنت تعلم ذلك جيداً ، وكل الناس يعلمونه أكثر مما ينبغي) أنت تظن انني اخدعه ؟ وانني اغشه ؟ وان لدي عشاقاً آخرين ؟ باي فرح سيبلغه الناس بذلك ! لا اريد إيلام احد ، لا هو ولا نفسي ، وانا بالتالي اقل حرية مما تخيل . إنني مقيدة تماماً . لكنني مسرورة لان كل واحد منا فهم الآخر جيداً . لانك الرجـل الوحيد الذي يمكنني معه ان أسمح انفسي بخيانة المدير . في الحقيقة ، انت تحبه بإخلاص ولا ترغب إطلاقاً بإيلامه . ستكون كتوماً تماماً . يمكنني الوثوق بك . يمكنني إذاً النوم معك .. » وجلست على ركبتي هاقل . واخذت تحل ازراره .

ماذا فعل الدكتور هاقل ؟

ماذا كان بوسعه أن يفعل ...

http://nj180degree.com

http://nj180degree.com

الفصل الخامس

في دوامة المشاعر النبيلة :

اقبل الصباح بعد الليل ونزل فليشمان الى الحديقة لكي يقطف منها باقة ورد . ثم استقل الترام إلى المشفى .

كانت لاليزابيت حجرة خاصة في قسم الاسعاف . جلس فليشمان عند وسادة سريرها ، وضع الباقة على طاولة السرير وامسك يد إليزابيت لكي يجس نبضها .

سالها بعد ذلك : « هل تتحسنين ؟

ـ قالت اليزابيت : اجل »

وقال فليشمان بصوت يفيض بالعاطفة : « ما كان يجب عليك ارتكاب حماقة كهذه يا عزيزتي .

ـ قالت اليزابيت : انك محق ، لكنني غفوت . وضعت الماء للتسخين كي اعد لنفسي القهوة وغفوت كالحمقاء » .

اخذ فليشمان يتأمل إليزابيت بذهول ، لانه لم يكن يتوقع مثل هذا الكرم منها : كانت تريد إعفاءه من تبكيت الضمير ، لم تكن تريد إرهاقه بحبها وكانت تنكر هذا الحب !

http://nj180degree.com

داعب وجنتيها ، واخذ يرفع الكلفة معها وقد اثيرت مشاعره : « اعرف كل شيء . لست بحاجة للكذب ، لكنني اشكرك على اكذوبتك » .

كان يدرك انه لن يستطيع ان يجد لدى اية امراة اخرى هذا القدر من النبل والتفاني والاخلاص ، وكاد أن يخضع لضغط الاغراء ويطلب منها أن تصبح زوجته . لكنه تمالك نفسه في اللحظة الاخيرة (لدى المرء دوما متسع من الوقت لتقديم طلب زواج) وقال فقط :

« إليزابيت ، إليزابيت ، عزيزتي . لاجلك جلبت هذه الورود » .

حدقت إليزابيت في فليسشمان بهيئة مخبولة وقالت : « لاجلي ؟

ـ اجل لاجلك . لانني سعيد لوجودي معك الآن . لانني سعيد من انك موجودة يا اليزابيت . لعلني احبك . لعلني احبك كثيرا . هذا بالتاكيد سبب إضافي لكي لا نذهب ابعد من ذلك . اظن ان رجلا وإمراة يتحابان اكثر عندما لا يعيشان سوية وعندما لا يعرف احدهما عن الآخر إلا امرا واحدا ، انه يعيش ، وعندما يكون كل واحد منهما ممتنا للآخر لانه يعيش ولانهما يعلمان انهما يعيشان . وهذا يكفيهما لكي يكونا سعيدين . اشكرك يا اليزابيت ، اشكرك على عيشك »

لم تكن اليزابيت تفهم شيئا من ذلك لكنها كانت تبتسم بابتسامة مغتبطة ، بابتسامة بلهاء ، مفعمة بموجة سعادة وموجة امل .

ثم نهض فليسشمان ، وشد بيده على كتف اليزابيت (دلالة حب دفين ومكنون) استدار وخرج .

عدم تاكد كل الاشياء :

قال المدير للدكتورة وهاقل عندما اجتمعوا سوية في القسم : « لقد وجدت بالتاكيد زميلتنا الجميلة ، التي تتالق تماما بالشباب

http://nj180degree.com

هذا الصباح ، التفسير الأصوب للأحداث . وضعت إليزابيت المسلاة التسخين كي تعد لنفسها القهوة وغفت . على أي حال ، هذا ما تزعمه

ـ قالت الدكتورة : أنتم ترون .

ـ أجاب المدير : لا ارى شيئاً البتة . في نهاية المطاف لا أحد يعلم شيئاً مما جرى . وربما كانت ركوة القهوة موجودة من قبل على السخان . فاذا كانت اليزابيت تريد الانتحار بالغاز ، لماذا كانت سترفع الركوة ؟

ـ علقت الدكتورة : لكنها شرحت لك كل شيء !

ـ بعد الكوميديا التي مثلتها علينا والخوف الذي سببته لنا ، لا يدهشكما أن تحاول جعلنا نعتقد ان كل شيء حصل بسبب ركوة . لا تنسيا أن المقدم على محاولة انتحار في هذا البلد يرسل بشكل آلي الى مشفى المجانين للعلاج . هذا الاحتمال لا يعجب احداً .

ـ قالت الدكتورة : هل تستهويك قصص الإنتحار أيها المدير ؟

ـ قال المدير ضاحكا : اتمنى لو أن ضمير هافل يعذبه لمرة واحدة .

ندم هافل :

التقط ضمير هافل الآثم من التعليق التافه للمدير تأنيباً مرمزاً كانت السماوات تمليه عليه سراً فقال : « المدير محق . لم تكن بالضرورة محاولة انتحار ، لكنها ربما كانت كذلك . فضلاً عن هذا ، إذا أمكنني التكلم بصراحة ، لا الوم إليزابيت . أخبروني ، هل توجد في الحياة قيمة واحدة مطلقة تنص على أنه يمكن أعتبار الانتحار مرفوضاً من حيث المبدأ ؟ الحب ؟ أم الصداقة ؟ أؤكد لك ان الصداقة ليست أقل هشاشة من الحب وأنه لا يمكن المرء أن يعول بشيء على الصداقة . أم حب

http://nj180degree.com

الذات على الاقل ؟ اتمنى ذلك . ايها المدير ، قال هاقل بحماسة تقريبا- وكان هذا يرن بمثابة ندم ، اقسم لك على انني لا احب نفسي إطلاقا .

ـ قالت الدكتورة بابتسامة : سادتي ، إذا كان هذا ينجمّل حياتكم ، إذا كان هذا ينقذ نفوسكم ، لنقرر أن اليزابيت ارادت الانتحار حقا . هل اتفقنا ؟ »

نهاية سعيدة :

قال المدير : « هذا يكفي . لنغير الموضوع . تلوث نقاشاتك يا هاقل هواء هذا الصباح الجميل ! إنني اكبرك بخمسة عشر عاما . إنني سيء الحظ لانني سعيد في الاسرة ، اي لانني لا استطيع الطلاق . وانا تعيس في الحب لأن المرأة التي احبها مع الأسف ليست إلا هذه الدكتورة ! ومع ذلك ، انا سعيد على هذه الأرض ! »

ـ قالت الدكتورة للمدير بحنان غير عادي : جيد ، جيد جداً . انا ايضا سعيدة على هذه الأرض » .

انضم فليسشمان في هذه اللحظة الى مجموعة الاطباء الثلاثة وقال : « خرجت لتوي من غرفة إليزابيت . إنها حقا فتاة شريفة الى ابعد حد . انكرت كل شيء . وتتحمل كل شيء .

ـ قال المدير ضاحكا : انتم ترون جيدا . ولولا قليل ، لدفعنا هاقل جميعا الى الانتحار .

ـ قال الدكتورة : طبعا » واقتربت من النافذة . « سيكون النهار جميلا ايضا . السماء في غاية الصفاء . ما رأيك يا فليسشمان ؟ »

منذ بضعة لحظات ، كان فليسشمان يلوم نفسه تقريبا على تصرفه بنفاق متخلصاً من المشكلة بباقة ورد وبضع كلمات جميلة ، لكنه صار

http://nj180degree.com

يهنيء نفسه الآن على عدم تسرعه في اتخاذ القرار. التقط إشارة الدكتورة وفهمها . كان خيط المغامرة على وشك الاستمرار من النقطة التي انقطع عندها في الأمس ، حين افشلت رائحة الغاز موعد فليسشمان مع الدكتورة . ولم يتمالك فليسشمان نفسه عن الابتسام للدكتورة ، حتى على مرأى من الدكتور الغيور .

تستمر الحكاية إذاً من حيث انتهت البارحة ، لكن فليسشمان يظن انه يعود إليها اكبر سناً بكثير واشد عوداً . فخلفه يقف حب عظيم كالموت . يشعر بموجة تكبر في صدره ، وهي الموجة الاكثر ارتفاعا والاشد باساً مما عرفه من قبل . لان ما يثيره بمنتهى الشهوانية ، هو الموت : الموت الذي قدم له هدية ؛ موت ساطع ومنعش .

* * *

http://nj180degree.com

http://nj180degree.com

فليغلِ الأموات القدامى
المكان للأموات الجدد

http://nj180degree.com

http://nj180degree.com

١

كان يعود إلى منزله سالكا طريق مدينة بوهيميا الصغيرة التي يسكنها منذ عدد لابأس به من السنين ، مستسلما لحياة لا فائدة ترجى منها ، وجيران ثرثارين وفظاظة مملة تحدق به في المكتب ، وكان يسير بلا مبالاة (مثلما يمشي المرء على طريق مئات المرات المتتالية) حتى كاد يخطئها . لكنها تعرفت إليه من بعيد ، وفيما تتقدم للاقائه ، كانت تنظر إليه بابتسامة آلت في اللحظة الاخيرة ، عندما تحاذيا ، إلى إفلات مفصلة في ذاكرته وبجلبته من وسنه .

قال : « لم اقلع في التعرف عليك » لكنه كان اعتذارا ارعن احالهما في الحال إلى موضوع مرهق كان الاجدر تجنبه : لم يلتقيا منذ خمسة عشرة عاما وقد هرم كلاهما . سالت : « هل تغيرت كثيرا ؟ » فاجابها بالنفي ، ومع ان هـذه كذبة ، فإنها لم تكن كذلك تماما ، لان هذه الابتسامة المخبوءة (التي تعبر بحياء وتواضع عن صعوبة الفرح الابدي) كانت تاتيه حتى الان عبر مسافة سنوات عديدة ، دون تغير ، وكانت تقلقه : لان هذه الابتسامة تذكره بهيئة هذه المراة القديمة بوضوح اضطره إلى بذل جهد كي ينسى تلك الابتسامة ويرى هيئتها كما اصبحت عليه الان : إنها امراة عجوز تقريبا .

سالها عن المكان الذي تقصده وعما تنويه ، فاجابته بانها جاءت لإنجاز بعض الاعمال وانه لم يعد امامها سوى انتظار القطار الذي سيقلها إلى براغ في المساء . عبّر عن السرور الذي جلبه له لقاؤهما المفاجيء ؛ وحين وافقا على الاعتراف (بحق) ان مشربي البيرة في الحي قدران ومزدحمان ، دعاها إلى شقته التي لم تكن بعيدة ، حيث يمكنه ان يحضر لها القهوة او الشاي ، والتي كانت على الاخص مكانا نظيفا وهادئا .

http://nj180degree.com

٢

كان النهار قد بدأ بداية سيئة بالنسبة لها . فزوجها مدفون في مقبرة هذه المدينة الصغيرة بناء على أمنية غريبة افصح عنها في رغباته الاخيرة (عاشا هنا منذ للاثين علما لبعض الوقت وكانا آنذاك متزوجين ، حديثا ، ثم اقاما في براغ حيث مات منذ عشر سنوات) . كانت إذاً قد حصلت على امتياز لمدة عشر سنوات ، وأكتشفت منذ بضعة أيام أنها نسيت تجديده وان المهلة انصرمت . فكرت في البداية بالكتابة إلى مكتب المقبرة ، لكنها حين تذكرت أن اية مراسلة مع الادارة هي مشروع طويل الأمد وعابث ، جاءت .

مع أنها تحفظ عن ظهر قلب الطريق المؤدي إلى ضريح زوجها . كانت تشعر يومئذ انها ترى المقبرة للمرة الأولى . لم تفلح في العثور على الضريح وظنت انها ضلت . فهمت اخيراً : هناك حيث كانت توجد سابقاً ، شاهدة من الصلصال مكتوب عليها اسم زوجها بحروف مذهبة ، صارت تنتصب الآن (كانت متاكدة من تعرفها على المكان من ضريحين مجاورين) شاهدة من الرخام الاسود ، منقوش عليها بحروف مذهبة اسم مجهول تماما .

ذهبت إلى مكتب المقبرة وهي مضطربة . هناك قالوا لها بأن القبور تفرّغ تلقائيا عند نهاية الامتيازات . لامتهم على عدم إخطارها بانه كان يترتب تجديد الامتياز ، واجابوها بأن ساحة المقبرة صغيرة وانه يجب على الموتى القدماء إخلاء المكان للموتى الجدد . كانت مغتاظة وقالت لهم ، وهي تداري بمشقة نحيبها ، انه ليس لديهم حس بالكرامة الانسانية ولا احترام للآخرين ، لكنها لم تلبث ان ادركت بأن النقاش غير مجدٍ . ومثلما لم تستطع منع موت زوجها ، كانت عاجزة امام هذا الموت الثاني ، هذا الموت الثاني ليت قديم لم يعد له الحق في الوجود حتى في عالم الموت .

http://nj180degree.com

عادت نحو مركز المدينة وغدا حزنها ممزوجاً بالقلق لأنها كانت تتساءل كيف سيكون بمقدورها أن تشرح لابنها اختفاء ضريح الأب والاعتذار له عن اهمالها . جاء التعب بعد ذلك : لم تكن تدري كيف تقضي ساعات الانتظار الطويلة حتى يحين موعد انطلاق القطار الذي سيقلها الى براغ ، لأنها لم تكن تعرف أحداً هنا ، ولم تكن ترغب أيضاً بالقيام بنزهة ترفيهية ، فقد تبدلت المدينة خلال سنوات الى درجة ان الامكنة القديمة المألوفة اضحت تبدي لها اليوم وجها غريبا تماما . لذلك لبت بامتنان دعوة الصديق القديم (نصف المنسي) الذي التقته للتو صدفة : اتيح لها غسل يديها في الحمام ، والجلوس على كرسي ناعم ومريح (كانت ساقاها تؤلمانها) ومعاينة الحجرة والاصغاء إلى صوت غليان الماء خلف الحاجز الذي يفصل زاوية المطبخ عن الشقة .

٣

كان قد بلغ مؤخراً الخامسة والثلاثين من عمره وقد اكتشف فجأة أن شعره مبعثر بوضوح على قمة جمجمته . إنه ليس صلعاً بعد ، لكنه ينذر به الآن (كان الشعر يفسح مجالاً لظهور الجلد) : صار محتماً تماماً وآتيا عما قريب . من المثير للسخرية بالتأكيد افتعال مشكلة حيوية عن تساقط شعره ، لكنه كان يدرك أن الصلع سيبدل وجهه وان الحياة بأحد مظاهرها (الأفضل بوضوح) تدنو من نهايتها .

تساءل عندئذ عن الحساب الدقيق لتلك الشخصية (طويلة الشعر) التي تموت شيئا فشيئا ، وعما عاشته تلك الشخصيةبالضبط واية افراح عرفتها بالضبط ، وتأكد بذهول ان افراحه كانت أمراً تافهاً جداً ، كان يشعر بالخجل في نفسه لا لشيء إلا لهذه الفكرة ، أجل كان الحياء يعتريه : لأنه من المشين الاقامة فترة طويلة على هذه الأرض والعيش قليلا .

http://nj180degree.com

ماذا كان يعني بالضبط حين كان يقول بأنه عاش قليلا ؟ هل كان يفكر بالاسفار والعمل والحياة العامة والرياضة والنساء ؟ كان يفكر بكل ذلك حتما ، لكن بادىء ذي بدء في النساء ، لانه كان يتألم قليلا من حياته الفقيرة في الميادين الاخرى ؛ لكنه لم يكن بوسعه اعتبار نفسه ملذبا في ذلك الفقر : فرغم كل شيء ليس خطاه إذا كانت مهنته دون منفعة مادية ودون أفق ؛ ليس خطاه إذا لم يستطع السفر وهو لا يملك من أجل ذلك المال ولا تصريح قسم الموظفين ، وليس خطاه إذا انكسر الغضروف العضلي في سن العشرين وإذا اضطر للتخلي عن الرياضة التي يحبها . أما الميدان الانثوي فقد كان بالنسبة له مجال الحرية الخاصة ، وفيه لم يكن بمقدوره التذرع باي عذر . كان بمقدوره في ذلك الميدان إظهار من يكون وإبراز تراثه ، فقد اصبحت النساء بالنسبة له المعيار الوحيد المؤكد لكثافته الحيوية .

لكنه ليس محظوظا ! لم ينجح ذلك ابدا مع النساء : فقد ظل الخوف يشله حتى بلغ الخامسة والعشرين (مع انه كان فتى وسيما ، بعد ذلك وقع في الحب ، فتزوج وسعى خلال سبع سنوات إلى إقناع نفسه بأنه يمكن للمرء أن يجد في امراة واحدة لانهائية الإثارة الجنسية ثم طلقها ، فاخلى تبرير أحادية الزواج (وهم الإثارة الجنسية) المكان للرغبة الوقحة والممتعة حيال النساء (المبرقشة بمهارة لوفرتهن) ، لكن تلك الشهوة والجراة كانتا ، مع الأسف مكبوحتين بشدة من جراء وضع مالي صعب (كان عليه أن يدفع نفقة شرعية إلى زوجته السابقة عن طفل سمح له برؤيته مرة أو مرتين في العام) وبسبب ظروف الحياة في مدينة صغيرة كان فضول الجيران فيها غير محدود مثلما كان اختيار النساء للاغواء مقيدا .

انقضى الزمن بعد ذلك بسرعة ، وفجاة الفى نفسه امام المرآة البيضوية المركزة فوق مغسلة الحمام ، ويمسك في يده اليمنى مرآة دائرية صغيرة فوق راسه ، واخذ ينظر إلى صلعته الوليدة مذهولا ، فادرك الحقيقة السخيفة على حين غرة (دون اي تمهيد) : لن يسترجع

http://nj180degree.com

ما تركه يضيع . صار يعاني منذ ذلك الحين من مزاج سيء دائم وتراوده افكار الانتحار . بالطبع (ولابد من لفت الانتباه الى ذلك كي لا تحسبوه مصابا بالهستيريا او احمق : كان يعي ما تحتويه تلك الافكار من جانب هزلي وانه لن ينفذها ابدا (كان يضحك على نفسه لخاطر رسالة الوداع: لن اقبل ابدا ان اصبح اصلع : الوداع !) لكن يكفي ان تلك الافكار : بل الافلاطونيات ، خطرت على باله . فلنحاول فهم ذلك : كانت تراوده هذه الافكار تقريبا مثلما تراود عداء المارثون الرغبة القاهرة في الانسحاب حين يتأكد في منتصف السباق انه على وشك الخسارة (وفوق ذلك ، بسبب هفواته) . هو ايضا كان يعتبر انه خسر السباق ولم تكن لديه الرغبة بمتابعة الجري .

والآن ، اخذ ينحني فوق الطاولة الصغيرة ويضع فنجان قهوة امام الاريكة (التي سيجلس عليها بعد ذلك) وفنجانا آخر امام المقعد المريح الذي جلست عليه الزائرة ، وراح يقول لنفسه إن الدهاء الغريب للقدر جعله يصادف هذه المرأة التي عشقها فيما مضى بجنون والتي تركها تفر آنذاك (بسبب هفواته) ، بالضبط حين صار يلفي نفسه في وضع نفسي سيء وحين لم يعد بالامكان استرجاع شيء .

٤

لن تكتشف بالتأكيد انها كانت في نظره المرأة التي تركها تفر ؛ كانت ما تزال طبعا تتذكر الليلة التي امضياها سوية ، وتتذكر هيئته حينئذ (كان في سن العشرين ، ولم يكن يعرف ارتداء ملابسه ، كان يخجل ويسليها بتصرفاته المراهقة) ، تتذكر ايضا المرأة التي كانتها آنذاك (كانت توشك على بلوغ الاربعين من عمرها وكان ظما للجمال يقذفها إلى احضان مجهولين ، لكنها تتخلى عنها في الحال ؛ لانها فكرت دائما انه يجب على حياتها أن تشبه رقصة ساحرة ، وكانت تخشى أن تتحول خياناتها الزوجية إلى عادة مشينة) .

http://nj180degree.com

اجل ، كانت تلزم نفسها بالجمال ، كما يلزم آخرون انفسهم بأمر اخلاقي ؛ فلو اكتشفت القبح في حياتها ، لاستسلمت لليأس . وبما انها كانت تدرك انه لا بد لمضيفها من ان يجدها مسنة بعد خمسة عشر عاما (مع كل القبح الذي ينطوي عليه ذلك) ، فقد سارعت إلى بسط مروحة وهمية امام وجهها ، وغمرته بالاسئلة : كانت تريد معرفة كيف جاء إلى هذه المدينة ؛ تسأله عن عمله ؛ تمتدح شقته التي تجدها ظريفة بإطلالتها على سطوح المدينة (قالت بانه ليس في تلك الإطلالة شيء غير مألوف طبعاً ، لكنها تعطي إحساساً بالحرية) ؛ سمت مقلدي بعض الصور المؤطرة للوحات الإنطباعيين (لم يكن ذلك صعباً لانه من المؤكد وجود الصور نفسها الرخيصة الثمن عند معظم المثقفين التشيكيين المفلسين) ، ثم نهضت وهي تمسك فنجانها بيدها ، وانحنت فوق المكتب الصغير حيث كانت عدة صور فوتوغرافية مرتبة في إطار (تأكدت انه لا توجد صورة فوتوغرافية واحدة لامرأة شابة) وسألت فيما إذا كان وجه المرأة المسنة الذي يشاهد في إحدى تلك الصور هو وجه والدته (فوافق) .

سألها بعد ذلك عن تلك الأعمال التي جاءت تنجزها كما أخبرته عند لقائهما . لم تكن لديها اية رغبة بالكلام عن المقبرة (كانت هنا ، في الطبق الخامس من هذه العمارة ، كالطقة فوق السطوح وكذلك كان يراودها ، إحساس ممتع جداً ، يعلو ايضاً فوق حياتها) ، ولانه اخذ يلح ، انتهت إلى الإعتراف (لكن باختصار شديد ، لأن الوقاحة الناجمة عن صراحة زائدة كانت غريبة عنها دوماً) بانها سكنت قديماً في هذه المدينة ، وقد مضى على ذلك سنوات كثيرة ، وان زوجها دُفن هنا (لم تذكر شيئاً عن اختفاء الضريح) وانها كانت تأتي في كل السنوات إلى هنا مع ابنها ، في عيد القديسين .

http://nj180degree.com

٥

« كل السنوات ؟ » كان هـذا الإعلان يحزنه وفكر من جديد في دهاء القدر ؛ فلو انه التقاها قبل ست سنوات عندما جاء للإقامة في هذه المدينة ، لظل كل شيء ممكناً : لما كانت بعد متغضنة بالزمن إلى هذا الحد ، ولما كانت مختلفة إلى هذا الحد عن صورة المرأة التي أحبها قبل خمسة عشر عاما ؛ ولحظي بالقدرة على تذليل الفرق والتقاط الصورتين (الصورة الحالية وصورة الماضي) كصورة واحدة . لكن كلتا الصورتين اصبحتا متباعدتين الآن بشدة .

شربت فنجان القهوة ، وراحت تتكلم بينما اخذ يحاول ان يحدد بالضبط مدى هذا التحول الذي كانت بسببه على وشك ان تفر منه للمرة الثانية : الوجه متغضن (وهو ما تحاول طبقات عديدة من المسحوق التستر عليه دون جدوى) ؛ العنق ذابل (وهو ما كانت تسعى لإخفائه دون جدوى تحت قبة مرتفعة) ؛ الوجنتان متهدلتان ؛ أما الشعر فقد كان الشيب يخطه (لكنه ظل جميلاً تقريباً !) . لكن ما كان يجذبه اكثر هـو اليدان (الفتان لم يفلح المسحوق ولا الحمرة بتجميلهما مـع الاسف) : كانت شبكة زرقاء من الأوردة التي تبرز عليهما مجسـمة تكاد تصنع منهما يدي رجل .

بدا الأسف يمتزج فيه بالغضب ، فرغب بالكحول كي ينسى ان هذا اللقاء حدث متأخراً جداً ، سألها إذا كانت ترغب بالكونياك (لديه زجاجة مودعة في الخزانة خلف الحاجز) ، فاجابته بالنفي وتذكر انها لم تكن تشرب منذ خمسة عشر عاما تقريبا ، بالتاكيد مخافة ان يحرم الكحول لعبتها من الاعتدال الظريف . وحين شاهد ايماءة يدها الرشيقة التي اشارت بها إلى رفض عرض الكونياك ، ادرك ان هـذا السحر الظريف وهذا الإغراء وهذا اللطف الذي فتنه ما زال على حاله مع انه توارى تحت قناع الزمن ، وما زال ايضاً جذاباً حتى وراء السياج .

http://nj180degree.com

عندما قال لنفسه بأن هذا السياج هو سياج الزمن ، شعر حيالها بشفقة بالغة ، وتلك الشفقة قربتها منه (هذه المرأة الفاتنة قديماً ، التي كانت تفقده النطق) ورغب بالثرثرة معها مدة طويلة كصديق مع صديقة) في جو ازرق خال من الكآبة . لذلك اخذ يتكلم بتزلف وألمح إلى تخلصه من افكاره التشاؤمية التي كانت تزعجه منذ بعض الوقت . وطبعاً لم يذكر شيئاً عن صلعه الوليد (مثلما لم تذكر شيئاً عن الضريح المختفي) ، وحولت رؤية الصلع القربان إلى عبارات شبه فلسفية بشأن الزمن الذي ينصرم بأسرع من أن يكون بمقدور الإنسان تعقبه ، وبشأن الحياة الموسومة بحتمية التحلل ، وإلى عبارات أخرى مماثلة ، كان ينتظر من زائرته أن ترد عليها بملاحظة حنونة ، لكنه انتظر عبثاً .

« قالت بحدة تقريباً : لا أحب كل هذه النقاشات ، كل ما ذكرته سطحي على نحو مرعب » .

٦

لم تكن تحب أن يتكلم أحد عن الشيخوخة وعن الموت ، لأنه كانت توجد في هذه الأحاديث صورة القبح الجسدي الذي تنفر منه . رددت مراراً على مضيفها ، بانفعال تقريباً ، أن آراءه سطحية ، فالإنسان كما تزعم هو أكثر من جسده الذي يذوي ، لأن الأساس هو عمل الإنسان وما يتركه الإنسان للآخرين . لم تكن هذه حجة جديدة من جانبها ، فقد التجأت إليها منذ ثلاثين عاماً ، عندما هلعت بزوج المستقبل الذي كان يكبرها بتسعة عشر عاماً ، لم تكف أبداً عن احترامه بصدق (رغم كل خياناتها التي لم يكن يعرف شيئاً عنها أو التي لم يكن يريد أن يعرف شيئاً عنها) وكانت تسعى لإقناع نفسها بأن ذكاء زوجها وسيرته يعوضان عن العبء الثقيل لسنواته .

أجاب بضحكة مريرة : « أي عمل أسالك عنه ! أي عمل تريدين أن نتركه ! » .

http://nj180degree.com

لم تكن تريد الإستشهاد بالمرحوم زوجها ، مع انها مقتنعة بالقيمة المستمرة لكل ماانجزه ، اكتفت إذا بالاجابة بان كل انسان في هذه الدنيا ينجز مهمته ، مهما كانت متواضعة ، وان ذلك ، ذلك وحسب يعطيه قيمته ، بدأت بالكلام عن نفسها بتحيز ، عن عملها في ناد ثقافي في ضواحي براغ ، عن الندوات والأمسيات الشعرية التي كانت تنظمها فيه، وراحت تتكلم (بتشدق بدا له غير لائق) « عن وجوه الجمهور الممتنة » ، ثم قالت بانه جميل أن لديها طفلاً وانها تشاهد قسماته الخاصة تتبدل شيئاً فشيئاً (كان ابنها يشبهها) لتصبح وجه رجل ، وانه جميل ان تهبه كل ما يمكن لأم ان تهبه لابنها وان تتلاشى بهدوء في آثار حياتها .

لم تكن مصادفة انها اخذت بالكلام عن ابنها. كان حاضراً يومئذ في كل فكرة من افكارها واخذ يلومها على إخفاقها في المقبرة ، كان هذا غريباً ، لم تسمح أبداً لرجل ان يفرض عليها إرادته ، لكن ابنها كان يتسلط عليها دون ان تتوصل لمعرفة الطريقة ، وإذا كان إخفاق المقبرة قد شوشها إلى هذا الحد ، فلأنها على الاخص كانت تشعر بنفسها مذنبة امامه وتخشى عتابه . كان ابنها يحرص بعناية فائقة على ان تحيي كما ينبغي ذكرى والده (فهو الذي يلح كل عام في عيد القديسين لكي لا ينسيا الذهاب إلى المقبرة !) وكانت تشتبه في ذلك منذ زمن طويل : فقد املى حب الاب المتوفى هذا الهم اقل مما املته الرغبة في اضطهاد الأم، والحفاظ عليها في الحدود الملائمة لأرملة ، لأن الأمر كان هكذا ، مع أنه لم يفصح عن ذلك ابداً ومع انها جاهدت (عبثاً) لتجاهله : كان ينفر من امه لدى التفكير بانه قد يكون لديها حياة جنسية وينظر باشمئزاز إلى كل ما يمكن ان يستمر من رغبتها الجنسية (حتى كافتراض) ولأن فكرة الجنس مرتبطة بفكرة الشباب ، فقد كان ينظر إلى كل ما يمكن أن يستمر فيها من الشباب باشمئزاز ، لم يعد طفلا وكان شباب والدته (المقترن بعنوانية الاهتمام الأمومي) يشكل حائلاً بينه وبين شباب الفتيات اللواتي بدأن باستمالته، كانت تلزمه أم مسنة لكي يستطيع احتمال حبها وليكون قادراً على حبها. ومع انها ادركت احياناً انه يدفعها هكذا إلى القبر ، فقد انتهت

http://nj180degree.com

إلى الاستسلام له والخضوع لضغطه، وحتى تجميل هذا الضغط بالاقتناع أن جمال حياتها يصدر تماماً عن ذلك التلاشي الهادىء خلف حياة أخرى . وباسم هذا التجميل (الذي لولاه لظلت تغضنات وجهها تثيرها كثيراً ؛ راحت تساجل مضيفها بحماسة غير متوقعة .

لكن مضيفها انحنى فجأة على الطاولة المنخفضة التي تفصل بينهما، داعب يدها وقال : « اعذريني إذا تفوهت بالحماقات ، فانت تعلمين جيدا انني كنت دائما احمق » .

٧

لم تغضبه مساجلتهما ، بل على العكس تماما ، فالزائرة لم تنفك عن تأكيد هويتها في نظره : في الاحتجاج الذي رفعته ضد احاديثه التشاؤمية (ولكن ألم يكن ذلك قبل كل شيء احتجاجاً ضد القبح والفوق الناشز ؟) كان يلقاها كما عهدها ، بحيث أن شخصيتها ومغامرتهما القديمة ما تزالا تشغلان تفكيره ولم يكن يرغب بعد إلا بشيء واحد ، ألا يأتي ما يعكر هذا الجو المزرق المناسب جداً للحديث (لهذا السبب داعب يدها ووصف نفسه بالاحمق) وان يستطيع محادثتها عما يبدو له أساسياً الآن : مغامرتهما المشركة ؛ لأنه غدا مقتنعاً انه عاش معها شيئاً ما غريباً تماماً لم تكن تدركه ، ولذلك صار يترتب عليه أن يبحث عنه ويجد بنفسه التعابير الدقيقة .

لم يكن يتذكر بعد حتى كيف تعارفا، بالتأكيد كانت قد جاءت للانضمام إلى فريق من الاصدقاء الطلبة ، ولكنه كان ما يزال يذكر الحانة الصغيرة البراغية الهادئة التي تواعدا على اللقاء فيها أول مرة : كان جالساً مقابلها في مقعد مفروش بالمخمل الاحمر ، وكان متضايقاً وصامتاً ، وفي الوقت نفسه منتشياً تماماً بالإيماءات اللطيفة التي تعبر بواسطتها عن أنسها به . كان يسعى لتصور (دون أن يتجرأ على الاقل بتحقيق تلك الاحلام) كيف سيكون حالها إذا عانقها ومراها واحبها ، لكنه لم

http://nj180degree.com

يفلح في ذلك . أجل ، كان ذلك غريبا : حاول مرارا تخيلها في الحب الجسدي لكن دون جدوى : كان وجهها يتابع النظر إليه بالبسمة الهادئة اللطيفة نفسها ، ولم يكن بوسعه (حتى بالكد المتواصل للمخيلة) ان يشاهد عليه التكشيرة الغرامية المثيرة . كانت تفر كليا من مخيلته .

كانت تلك حالة لم تتكرر ثانية قط في حياته : فقد الفى نفسه في مواجهة الغرابة . كان قد عاش تلك الفترة الوجيزة جدا من الحياة (الفترة الفردوسية) التي لم تشبع فيها المخيلة بعد بالتجربة ولم تصبح روتينا والتي يعرف فيها المرء ويعلم القليل من الأمور بحيث أن الغرابة ما تزال موجودة ؛ وحين تكون الغرابة على وشك التحول إلى حقيقة (دون وساطة المتخيل ، ودون جسر الصور) فان المرء يصاب بالذعر والدوار . وبالفعل اعتراه الدوار حين لم يفلح بعد عدة لقاءات اخرى في التصميم على شيء ، وبدات تسأله بالتفصيل وبفضول معبر عن حجرة دراسته التي يشغلها في المدينة الجامعية ، وهي تضطره تقريبا إلى دعوتها .

حجرة المدينة الجامعية التي كان يسكنها مع رفيق وعده بثمن قدح عرق ، بعدم العودة قبل منتصف الليل في ذلك المساء ، لم تكن تشبه شقة اليوم : سريران معدنيان وخزانة ومصباح مبهر دون واقي ، وفوضى رهيبة . رتب الحجرة ، وفي الساعة السابعة (كانت دقيقة دائما ، وكان ذلك جزءا من لباقتها) طرقت الباب . كانا في شهر أيلول وبدا الليل يحل ببطء. جلسا على طرف السرير المعدني واخذا يتعانقان. عم الظلام بعد ذلك اكثر فاكثر ولم يكن يرغب باضاءة النور ، لانه كان سعيدا لعدم قدرتها على رؤيته ، وكان يامل أن تخفف العتمة الضيق الذي كان لا بد أن يشعر به عندما سيخلع ملابسه امامها (ولطالما كان يعرف بطريقة ما حل ازرار صدار النساء ، فقد كان يتعرى من ملابسه امامهن بتهور محتشم) لكنه في تلك المرة ، تردد طويلا قبل أن يفك الزر الأول من قميصها (كان يقول لنفسه انه يجب على حركة التعرية الأولى أن تكون حركة رشيقة ولطيفة خليقة بالرجال المجربين ، وكان يخشى

http://nj180degree.com

من افتضاح قلة خبرته) بحيث أنهـا نهضت من تلقاء نفسها وسألته بابتسامة : « أليس الأجدر بي خلع هذا الدرع ؟... » وبدأت بخلع ملابسها ؛ لكن الظلام كان طاغياً ولم يكن يرى إلا ظلال حركاتها . تعرى بسرعة ولم يشعر بالاطمئنان الاكيد إلا عندما بدا (بفضل الصبر الذي اظهرته) بالمضاجعة . راح ينظر إلى وجهها لكن دلالته كانت تفلت منه في الظلام ولم ينجح حتى في تمييز قسماته . كان يأسف لعدم اضاءة النور لكن اصبحت تبدو له استحالة النهوض الآن لكي يتوجه نحو الباب ويوصل قاطع التيار ؛ إذاً كان ما يزال يتعب عينيه دون جدوى : لم يكن يميزها ؛ وكان يشعر بحب امرأة اخرى ؛ انسانة مستعارة ومجردة ودون كيان .

جلست بعد ذلك فوقه (وحتى ذلك الحين ، لم يكن يشاهد منها إلا ظلها المنتصب) وقالت له ، وهي تمايل وركيها ، شيئاً ما مخنوق في تمتمة ، لكن كان من العسير معرفة ما إذا كانت تقول ذلك له أم لنفسها. لم يكن يميز الكلمات وسألها عما كانت تقوله . وظلت تهمس ، وحتى عندما ضمها من جديد ، لم يستطع فهم كلماتها .

٨

كانت تصغي إلى مضيفها ، وهي مفتونة أكثر فأكثر بالتفاصيل التي نسيتها منذ وقت طويل : فعلى سبيل المثال ذلك الرداء الأزرق الغامق من نسيج الصيف الخفيف الذي كانت تشبه فيه ، كما يقول ، ملاكاً مقدساً (أجل تتذكر ذلك الرداء) أو تلك الشكالة الشخينة المثلومة التي كانت تضعها في شعرها والتي تمنحها نبلاً مندرساً لسيدة نبيلة ، أو تلك المادة التي كانت تلازمها في الحانة التي يتواعدان فيها ، يطلبها دائماً شاي بقصب السكر (خطيئتها الكحولية الوحيدة) ، وكان كل ذلك يجرفها بمتعة ، بعيداً عن المقبرة وعن الضريح المندثر ، بعيداً عن ساقيها المتألمين وعن نادي الثقافة ، وبعيداً عن عيني ابنهـا المعاتبتين . راحت تفكر ، آه ، رغم ما أنا عليه الآن ، فانني لم أعش هباءً

http://nj180degree.com

طالما أن القليل من شبابي ما يزال يعيش في ذاكرة هذا الرجل ؛ وقالت لنفسها بعد ذلك بأن هذا تأكيد جديد لقناعتها :كل قيمة الكائن الانساني تتوقف على تلك الصعوبة في التفوق على ذاته ، في أن يكون خارج نفسه ، ان يكون في الآخرين ولأجل الآخرين .

كانت تصغي إليه ولا تمانعه حين كان يداعب بين الفينة والأخرى يدها ؛ كانت هذه الحركة تنسجم مع الجو الودي للمحادثة وينبعث منها غموض مهدىء (لمن كان يوجه هذه الحركة ؟ للمرأة التي يتكلم عنها أم للمرأة التي يكلمها ؟) ؛ وفضلا عن ذلك كان هذا الرجل الذي يداعبها يعجبها ؛ فقد كانت تقول لنفسها بأنه يعجبها أكثر من الشاب الفتي منذ خمسة عشر عاماً الذي كانت رعونته ، إن كانت ما تزال تتذكر ذلك جيداً ، مضنية .

حين وصل في حكايته إلى اللحظة التي كان فيها شبحها المتحرك ينتصب فوقه ، والتي كان يحاول فيها عبثاً تلقف كلماتها ، صمت لبرهة وسألته برفق (بسذاجة ، كأنه يعرف هذه الكلمات وكأنه يريد بعد سنوات كثيرة ان يذكرها لها كسر منسي) : « وماذا كنتُ أقول ؟ »

٩

أجاب : « لا أدري » وفي الحقيقة لم يكن يعلم ذلك ؛ فقد هربت آنذاك ليس فقط من خياله ، بل ومن حواسه ، من نظره كما من سمعه. عندما اشعل النور في حجرة المدينة الجامعية الصغيرة ، كانت قد ارتدت ملابسها ثانية ، وكان كل شيء عليها أملس من جديد، فاتنا براقاً وكاملا، وكان يبحث عبثاً عن الرابطة بين هذا الوجه المضيء وذاك الوجه الذي كان يخمنه في الظلام قبل بضع لحظات . لم يكونا قد افترقا بعد في ذلك المساء ، وبات الآن يسترد ذكراها : كان يرغم نفسه على تصور كيف كان وجهها (المستتر بالظلام) وجسدها (المستتر بالظلام) قبل لحظات ، اثناء المضاجعة . عبثاً ؛ كانت تهرب دائماً من خياله .

http://nj180degree.com

صمم على ان يضاجعها المرة القادمة في النور . لكن لم توجد مرة قادمة . كانت تتجنبه بمهارة وتهذيب وكان يستسلم للشك واليأس . وربما كانا قد تضاجعا جيداً ، لكنه كان يعلم ايضـاً إلى اي مدى كان مستحيلا آنفا ، وكان يخجله ذلك ؛ كان يشعر بنفسه مذنباً لأنها كانت تتجنبه ، ولم يعد يتجرأ على الإلحاح على لقائها .

« اخبريني ، لماذا كنت تتجنبينني ؟

ـ قالت بصوت اكثر رقة : ارجوك . مضى زمن طويل على ذلك . ما ادراني بالسبب ؟ » وبينما ما يزال يلح ، قالت « لا ينبغي العودة دائماً إلى الماضي . ويكفي الآن ان يخصص المرء له قسطاً من الوقت على مضض ، ذاك الماضي ! » كانت قد قالت هذا لتهديء إلحاحه قليلاً (وتلك العبارة الاخيرة الملفوظة بتنهيدة خفيفة ، كانت تعيدها بالتأكيد إلى زيارتها الاخيرة للمقبرة) ، لكنه فسر تصريحها بطريقة أخرى : كان هذا التصريح يهدف لجعله يفهم فجأة وبتروٍ (هذا أمر واضح) أنـه لا توجد امرأتان (امرأة اليوم والمرأة القديمة) بل امرأة واحدة بعينها وان تلك المرأة التي تهربت منه منذ خمسة عشر عاماً ، اضحت الآن حاضرة هنا وفي متناول يده .

قال بنبرة معبرة : « إنك محقة ، الحاضر اهم » وحين قال ذلك ، راح ينظر بحدة إلى وجهها الباسم الذي تكشف شفتاه المنفرجتان عن صف أسنان ؛ وفي تلك اللحظة ، خطرت على باله ذكرى : في ذلك المساء ، في حجرة المدينة الجامعية الصغيرة ، امسكت اصابعه ووضعتها في فمها ، عضتها بقوة إلى درجة انها آلمته وفي تلك الأثناء ، كان يتحسس فمها برمته ، وما زال يتذكر ذلك بوضوح ؛ فمن احد جوانبه كان ينقصه بعض الأسنان (لم ينزعج من هذا الاكتشاف عندئذ ؛ بل على العكس ، كان هذا العيب الصغير ينسجم مـع عمر رفيقته ، العمر الذي كان يستهويه ويستثيره) لكنه استطاع الآن ، وهو ينظر في الشق الذي ينفتح بين الأسنان وزاوية الفم ، التأكد من ان الأسنان ناصعة البياض ولا ينقصها

http://nj180degree.com

اي سن ؛ وقد أغاظه ذلك : كانت الصورتان تنفصلان عن بعضهما مرة اخرى ، لكنه لم يكن يريد الإقرار بذلك ، وكان يريد جمعهما من جديد ، بالقوة و الاكراه ، وقال : « الا ترغبين حقاً بالكونياك ؟ » وفيما كانت ترفض بابتسامة ساحرة وقد رفعت حاجبيها بلطف ، انسحب الى خلف الحاجز واخرج زجاجة الكونياك ، وأمالها نحو فمه وشرب بسرعة . قال لنفسه بعد ذلك انها ستكتشف من تنفسه ما قام به في الخفاء لتوه: اخذ كاسين والزجاجة وحملهما الى الحجرة . هزت رأسها من جديد فقال « على الاقل بشكل رمزي » وملأ الكاسين . صدم قدحه مع قدحها: « لكي لا اتكلم عنك بعد إلا في الحاضر ! » افرغ قدحه وبللت شفتيها ؛ ثم جلس بجوارها على ذراع الكرسي وامسك يديها .

١٠

لم تكن تشتبه حين رافقته إلى شقته ان اي اتصال قد يحدث ؛ وفي الحال اعتراها الذعر من ذلك ، كما لو ان هذا الاتصال حدث قبل ان تسنح لها فرصة التحضير له (هذه الحالة من التحضير الدائم كما تعرفها المراة الناضجة ، كانت قد فقدتها منذ زمن طويل) ؛ (قد يتبين المرء في ذلك الذعر امراً ما مشتركاً مع ذعر المراهقة التي قبلها للمرة الاولى لانه إذا كانت المراهقة غير مستعدة بعد وإذا كانت الزائرة لم تعد مستعدة ، فإن هذه « لم تعد » وهذه « بعد » مرتبطان خفية كما ترتبط الشيخوخة والطفولة) اجلسها بعد ذلك على الأريكة وضمها إلى صدره وداعب جسدها كله ، وصارت تشعر بنفسها هشة بين ذراعيه (اجل ، هشة : لان جسدها فقد منذ زمن طويل تلك الشبكية الجامحة التي كانت توصل إلى عضلاتها إيقاع التشنجات والارتخاءات ونشاط مئات الإنعراجات العذبة) .

لكن ذعر الوهلة الاولى تبدد بسرعة تحت تاثير مداعباته ، وكانت هي ، التي اصبحت بعيدة جداً عن المراة الناضجة الجميلة التي كانتها سابقاً ، تعود بسرعة تبعث على الدوار إلى ذلك الكائن المختفي — في

http://nj180degree.com

حساسيتها ووعيها وتستعيد الاطمئنان القديم لعاشقة خبيرة ، وبما انها تشعر بهذا الاطمئنان منذ زمن طويل ، فقد اصبحت تشعر به الآن بحدة اكثر من اي وقت مضى ، فجسدها الذي كان ، منذ برهة ، مايزال مذهولا ومذعورا ، مستسلما ولينا ، صار يتحرك ويستجيب الآن لمداعباته الخاصة واصبحت تحس وضوح ومعرفة هذه المداعبات ، فيفعمها ذلك بالغبطة ، هذه المداعبات ، والطريقة التي تضع بها وجهها على جسده ، والحركات العذبة التي يستجيب بها نصف جسدها العلوي للعناق ، كانت تجد كل ذلك ليس كأمر معلوم ، امر كانت تعلمه وتنجزه الآن برضى فاتر ، لكن كأمر ما ضروري لها ، تمتزج معه في الثمل والإثارة ، كأنها تعثر على قارتها الأليفة . (آه ، قارة الجمال !) التي نفيت منها والتي تعود إليها باحتفالية .

اصبح ابنها الآن بعيدا للغاية ، وعندما احتضنها مضيفها ، لمحته يلومها في زاوية تفكيرها المتوارية ، لكنه اختفى بسرعة فائقة ، ولم يعد يوجد الآن على بعد مائة فرسخ من جميع الجهات إلا هي والرجل الذي يداعبها ويحتضنها . لكن كل شيء تبدل حين وضع فمه على فمها وأراد فتح شفتيها بلسانه : عادت إلى الواقع . كزت بشدة على اسنانها (صارت تشعر بطقم اسنانها الملتصق بفكيها ، وبات لديها إحساس بأنه يملأ فمها) ثم دفعته برفق : « كلا . حقا . ارجوك . لا ينبغي » .

وبينما راح يتابع إلحاحه ، امسكت معصميه وكررت رفضها ، ثم قالت له (اخذت تتكلم بجهد ، لكنها كانت تعلم انه لا بد لها من التكلم اذا ارادت ان يطيعها) أن اوان التضاجع قد فات ، وذكرته بعمرها الذي بلغته ، قالت بانهما إذا تضاجعا فلن يشعر حيالهما إلا بالتقزز ، وستكون حزينة من ذلك ، لأن ما قاله لها عن مغامرتهما القديمة كان جميلاً ومهماً بالنسبة لها ؛ كان جسدها ميتاً وذاوياً ، لكنها اصبحت الآن تعلم انه بقي منه شيء ما روحي ، شيء ما يشبه شعلة ما يزال يلتمع ، حتى بعد انطفاء النجمة ، وليس مهماً أن تشيخ من دام شبابها سليماً ، ويظهر في كائن آخر . طفقت تقول للدفاع عن

http://nj180degree.com

نفسها : « شيدت لي صرحا في ذاكرتك . ليس بوسعنا السماح بتهديمه ، افهمني . ليس لك الحق ، ليس لك الحق بذلك »

١١

اكد لها بانها كانت دوما جميلة ، وانه لم يتغير شيء في الواقع ، وان المرء يبقى على حاله دائما ، لكنه كان يعلم انه يكذب عليها وانها محقة : كان يعرف حق المعرفة حساسيته المفرطة بخصوص الامور الجسدية ، والاشمئزاز الذي يتضح اكثر في كل عام ، كان يشعر به حيال عيوب الجسد الانثوي ، ويدفعه اكثر فاكثر خلال هذه السنوات الاخيرة إلى مقربة من النساء الشابات الفارغات ، كما كان يتبين بمرارة ، والحمقاوات اكثر فاكثر ، اجل ، لم يكن في وسعه إيجاد اي شك في هذا الصدد : فلو اقنعها بالمضاجعة ، لوجد في النتيجة التقزز ، وذلك التقزز لا يمكنه إلا تلطيخ ، ليس فقط اللحظة الحالية ، بل صورة المراة المحبوبة منذ زمن طويل ، تلك الصورة التي ما زال يحتفظ بها في ذاكرته كجوهرة .

كان يعلم كل ذلك ، لكن كل ذلك لم يكن سوى افكار ، والافكار لا تستطيع شيئا حيال الارادة التي لا تعرف إلا شيئا واحدا : المراة التي عذبته بعدم قابليتها للمس وعدم قابليتها للإمساك طوال خمسة عشر عاما ، تلك المراة كانت حاضرة ، يوشك ان يستطيع اخيرا رؤيتها في النور الساطع ، يوشك ان يتمكن اخيرا ، في جسدها اليوم ، من قراءة جسدها القديم ، وقراءة وجهها القديم في وجهها اليوم . يوشك اخيرا ان يتمكن من اكتشاف ايمائيتها العاشقة الخارقة ، وانقباضها العاشق الخارق .

عانق كتفيها ونظر في عينيها : « لا ترفضي ، لا معنى للمقاومة »

١٢

لكنها هزت راسها ، لانها تعلم انه ليس من المحال على الاطلاق مقاومته ؛ كانت تعرف الرجال وموقفهم حيال جسد المراة ، وكانت

http://nj180degree.com

تعلم انه حتى المثالية الاكثر حماسة في الحب لا يمكنها أن تنتزع عن سطح الجسد طاقته المخيفة ؛ طبعا ، ما تزال تمتلك رشاقة مناسبة تماما ، حافظت على ابعادها الأولية ، وما تزال تمتلك مظهر الشباب تماما ، لا سيما عندما تكون مرتدية ملابسها ، لكنها كانت تعلم أنها بتعريها ستظهر تغضنات عنقها وأنها ستعري جرحها الطويل ، الناجم عن عملية في المعدة اجرتها قبل عشرة اعوام .

وكلما كانت تستعيد وعيها بمظهرها الجسدي الحالي الذي نسيته منذ بضعة لحظات ، كانت همومها صبيحة اليوم تصعد من اعماق الطريق حتى نافذة الشقة (التي اعتقدت انها عالية بما فيه الكفاية حتى تضعها في منأى عن حياتها) وتملأ الحجرة ، وتستقر على اللوحات المؤطرة ، وعلى الأريكة ، وعلى الطاولة ، وعلى فنجان القهوة الفارغ ، وكان وجه ابنها يقود مواكبها ؛ فحين لمحته ، احمرت وبحثت عن ملجأ في مكان ما من قرارة نفسها : كادت المجنونة التي كانتها تبتعد عن الطريق الذي رسمه لها والذي اتبعته حتى الآن بالابتسامة والكلمات الحماسية ؛ كانت قد ارادت (حتى لبرهة قصيرة) الفرار ، وإذا بها يترتب عليها استئناف طريقها بوداعة والاعتراف بأنه الدرب الوحيد الذي يلائمها . كان وجه ابنها ساخرا حتى انها شعرت بنفسها في غمرة خجلها ، انها تصبح صغيرة اكثر فاكثر امامه ، لكي لا تكون بعد ، في قمة الذل ، إلا الجرح الذي كان على معدتها .

كان مضيفها يمسكها من كتفيها ويردد : « لن يكون هناك معنى للمقاومة » وكانت تهز راسها ، لكن بطريقة عفوية تماما ، لأن عينيها لم تكونا تشاهدان المضيف ، بل وجه الابن الغريم الذي كانت تمقته اكثر كلما شعرت بنفسها اصغر واكثر ضعة . كانت تسمعه يلومها على الضريح المختفي ، ومن تشوش ذاكرتها ، وباحتقار لكل منطق ، انبعثت هذه الجملة التي صرختها في وجهه بحنق : يجب على الاموات القدامى إخلاء المكان للاموات الجدد يا صغيري !

http://nj180degree.com

١٣

لم يكن بوسعه بعد الاشتباه بأن ذلك سيؤول إلى التقزز ، لأن النظرة التي صار يوجهها إليها الآن (نظرة منقبة وثاقبة) لم تكن مستثناة من بعض التقزز ، ولكن الأمر الغريب أن ذلك لم يكن يضايقه ، بل يثيره ويهيجه ، كأنه كان يتمنى هذا التقزز : كانت رغبة الجنس تقترب فيه من رغبة التقزز ، وكانت رغبته في أن يقرأ على جسدها ما اضطر إلى تجاهله منذ زمن طويل تمتزج برغبة تلطيخ السر المفضوح حديثا في الحال .

من أين كانت تأتيه هذه الشهوة ؟ سواء أشعر بها أم لا ، كانت فرصة وحيدة تقدم له : كانت زائرته تجسد بالنسبة له كل ما لم ينله ، وكل ما فر منه ، وكل ما كان غيابه يجعله لا يحتمل عمره الآن مع شعره الذي بدأ يسقط وهذه النتيجة الفارغة المثيرة للشفقة ؛ وهو الذي أدرك ذلك بوضوح أو اشتبه به بغموض ، صار بوسعه الآن أن يحرم من المعنى كل أفراحه التي حرم منها (والتي كانت ألوانها المثيرة تجعل حياته بلا لون على نحو مؤسف) ، أصبح بوسعه اكتشافه أنها كانت ساخرة وأنها لم تكن إلا مظهراً وإخفاقاً ، وأنها لم تكن إلا غباراً مثاراً ، أصبح بوسعه الثأر منها وإذلالها والقضاء عليها .

أخذ يردد وهو يرغم نفسه على جذبها إليه « لا تقاومينني » .

١٤

كانت قسمات ابنها الهازئة ماتزال تصب عينيها وعندما جذبها مضيفها إليه بقوة ، قالت : « اتركني لبرهة من فضلك » وهربت منه ، كانت تخشى في الحقيقة من قطع شريط أفكارها : كان يجب على الأموات القدامى إخلاء المكان للأموات الجدد والنصب لا تفيد بشيء ، حتى ذلك النصب الذي رفعه الرجل الموجود إلى جوارها الآن في ذاكرته

http://nj180degree.com

طيلة خمسة عشر يوما لم يكن يفيد بشيء ، اضحت كل النصب من أجل لا شيء ، من اجل لا شيء . ذلك ما راحت تقوله لابنها في تفكيرها ، واخذت تنظر برضى ثاري إلى وجهه الذي ينقبض ويصرخ فيها : « لم تتكلمي ابدا يا امي هكذا ! » كانت تعلم جيدا انها لم تتكلم هكذا ابدا ، لكنها غدت في هذه اللحظة مفعمة بنور يجعل كل شيء جليا تماما .

ليس لها الحق بإعطاء النصب الافضلية على الحياة ؛ فنصبها ليس له بعد مبرر واحد للوجود : بوسعها تسخيره الآن لمتعة جسدها المحتقر ، لان الرجل الجالس بجوارها يعجبها ، إنه شاب ، والأرجح (وحتى شبه مؤكد) انه الرجل الاخير الذي يعجبها والذي يمكنها الحصول عليه ، وهذا وحده المهم ، وإذا الهمته بعد ذلك التقزز وهدمت نصبها في تفكيره ، فستسخر من ذلك ، لان هذا النصب موجود خارج نفسها ، كما توجد خارج نفسها ذاكرة ذاك الرجل وتفكيره ، وليس مهما ما يوجد خارج نفسها ، « لم تتكلمي ابدا يا امي هكذا ! » كانت تسمع تعجب ابنها ، لكنها لم تكن تعيرها انتباها . كانت تبتسم .

قالت برقة : « إنك مُحق ، لماذا سأقاوم ؟ » ونهضت . ثم بدأت تحل ازرار ثوبها بهدوء . كان المساء مايزال بعيدا . هذه المرة كان الضياء يعم في الحجرة .

* * *

http://nj180degree.com

لـن يضحـك احـد

http://nj180degree.com

http://nj180degree.com

١

قالت لي كلارا : « اسكب لي كأس نبيذ آخر » فاذعنت ، ولكي نشرب زجاجة النبيذ تذرعنا بحجة عادية لكنها تستوقف : فقد قبضت يومئذ مبلغاً كبيراً لقاء دراسة طويلة نشرتها مجلة تاريخ الفن .

وإذا كان قد قيض لدراستي ان تنشر ، فإن ذلك لم يتم بيسر . لأن ما كتبته لم يكن سوى ترهات ومهاترات كلامية . ولذلك رفض اعضاء هيئة تحرير مجلة الفكر التشكيلي الكبار في السن والمحافظون النص الذي عهدت به أخيراً إلى مجلة منافسة ، صحيح أنها اقل شأناً ، لكن محرريها اكثر شباباً وطيشاً .

كان ساعي البريد قد أحضر لي إلى الكلية حوالة مصرفية بالإضافة إلى رسالة . ولم تكن رسالة هامة لذلك تصفحتها بسرعة في الصباح وانا مزهو بمكانتي الجديدة . لكنني بعد عودتي إلى المنزل ، وبينما كنا نقترب من منتصف الليل ، والنبيذ في الزجاجة يتناقص ، تناولت الرسالة عن مكتبي وقراتها على كلارا بغرض التسلية :

« الرفيق العزيز ـــ واسمح لنفسي باستخدام عبارة ـــ الزميل العزيز ـــ اعذر رجلا لم تكلمه أبداً في حياتك بأن يبيح لنفسه الحق بمراسلتك . اتوجه إليك راجيا منك أن تتكرم بقراءة المقالة المرفقة ، لا اعرفك شخصيا لكنني احترمك ، لانك في نظري الرجل الذي بدت لي دائماً آراؤه ومنطقه واستنتاجاته تعزز بطريقة مدهشة نتائج بحوثي الشخصية . . . » لم يسهب في تقريظ مواهبي ويقدم لي إلتماسا : يطلب مني أن اسدي له معروفاً بكتابة تعليق قراءتي إلى مجلة الفكر التشكيلي

http://nj180degree.com

التي ما زالت ترفض وتدم مقالته منذ ستة اشهر . وقد اخبروه بأن رايي سيكون حاسما بحيث اصبحت املسه الوحيد منذ ذلك الحين وبصيص الضوء الوحيد في دياجيره العنيدة .

كنت اتبادل مع كلارا انواع الفكاهات عن السيد زاليروكي الذي سحرنا اسمه الرنان ؛ وهي فكاهات ودية بالتأكيد ، لأن التقريظ الذي وجهه إلي جعلني سمحا ، ولا سيما وان زجاجة النبيذ الفاخر في متناول يدي . وقد جعلتني تلك السماحة الغامرة في تلك اللحظات الراسخة في الذاكرة اشعر بالحب حيال جميع الناس . وبما انه من غير الممكن تقديم هدايا لكل الناس فقد كنت اقدم بعضها إلى كلارا . وهي وإن لم تكن هدايا ، فهي وعود على اية حال .

كانت كلارا البالغة من العمر عشرين عاما فتاة من اسرة طيبة ، لماذا اقول طيبة وليس اسرة راقية ! فقد طُرِدَ والدها ، وهو مدير بنك سابق ومن ثم ممثل البرجوازية الكبيرة ، من مدينة براغ حوالي عام ١٩٥٠ وذهب للإقامة في قرية سيلاكوفيس الواقعة على مسافة بعيدة من العاصمة . اما ابنته التي حصلت على درجات منخفضة في قسم الملاك الاداري ، فقد كانت تعمل خياطة امام آلة خياطة في ورشة كبيرة تابعة لمؤسسة الالبسة الجاهزة في براغ . في ذلك المساء بوانا جالس مقابلها ، كنت استميلها نحوي عن طريق التفاخر امامها دون ترو بحسنات الوظيفة التي اعدها بالحصول عليها بمساعدة اصدقائي . اكدت لها بأنه من غير المقبول ان تضيع فتاة في غاية اللطف جمالها امام آلة خياطة وقررت بأن عليها أن تصبح عارضة ازياء .

لم تعارضني كلارا وقضينا الليل في وفاق سعيد .

٢

ها نحن نجتاز الحاضر بعيون معصوبة ، اقصى ما بوسعنا الشعور به واكتشافه هو اننا ما زلنا نحيا ، فيما بعد وحسب ، وعندما تزول الغشاوة ونسترجع الماضي ، ندرك ما عشناه ونفهم معناه .

http://nj180degree.com

كنت احسب في ذاك المساء أنني اشرب نخب نجاحي ولم يراودني اي شك بأن ذلك تدشين رسمي لنهايتي .

ولانني لم أشتبه بشيء ، فقد استيقظت في اليوم التالي مبتهجا ، وبينما كانت كلارا ما تزال غافية بعمق تناولت المقالة المرفقة برسالة السيد زاتيروكي ورحت أقرأها في فراشي باستخفاف ممتع .

لم تكن المقالة المعنونة بـ « معلم الرسم التشيكي ميكولاس اليس » تستحق حتى تلك النصف الساعة اللاهية التي أمضيتها في قراءتها . فقد كانت عبارة عن لمة من افكار مبتذلة مجمعة دون أدنى ترابط منطقي ودن اية فكرة مبتكرة .

كانت بالتأكيد حماقة ، هـذا ما اكده لي هاتفيا في اليوم نفسه الدكتور كالوزيك رئيس تحرير مجلة الفكر التشكيلي (وهو ذو شخصية سمجة على العموم) فقد اتصل بي في الكلية وقال لي : « هل تلقيت مقالة السيد زاتيروكي ؟ حسنا ، تكرم علي بتحرير تعليقك ، لقد انتقد خمسة اخصائيين مقالته ، لكنه ما يزال يلح ويحسب انك المرجع الوحيد والفريد ، اكتب في بضع سطور أن مقالته سخيفة ، بوسعك القيام بذلك ، ويمكنك أن تكون لاذعا ، وهكذا سيدعنا وشأننا » .

لكن أمراً ما في دخيلي تمرد : لماذا يترتب علي ، انا على وجه التحديد ، أن أصبح جلاد السيد زاتيروكي ؟ وهل سأقبض راتب رئيس التحرير لقاء ذلك ؟ ومن جهة اخرى ما زلت اتذكر أن مجلة الفكر التشكيلي ارتأت بحذر رفض دراستي ؛ عدا عن أن اسم السيد زاتيروكي اقترن في ذهني بذكرى كلارا وزجاجة نبيذ وامسية جميلة . اخيراً لن انكر ، وهذا ينسجم مع الطبيعة الانسانية ، بأنه يمكنني أن أعد على اصابع يدي وحتى إصبع واحد الناس الذين يعتبرونني « المرجع الوحيد والفريد » فلماذا أجعل من هذا المعجب الوحيد غريما لي ؟

http://nj180degree.com

انتهت المكالمة مع كالوزيك ببضع كلمات مازحة وغامضة ، كان بوسع كل واحد منا أن يعتبرها كما يشاء ، هو كوعد وأنا كتملص ، ثم اغلقت الهاتف وأنا مصمم على عدم كتابة تعليق القراءة بصدد مقالة السيد زاتيروكي .

وهكذا تناولت ورقة رسائل من درجي وكتبت رسالة للسيد زاتيروكي تجنبت فيها بحرص إبداء اي رأي حول عمله وشرحت له أن افكاري حول فن الرسم في القرن السابع عشر تعتبر على العموم خاطئة ، لا سيما في هيئة تحرير مجلة الفكر التشكيلي ، بحيث يخشى أن يؤذيه تدخلي اكثر من ان يفيده . وفي الوقت نفسه كنت اغدق على السيد زاتيروكي بكلام ودي يرغمه على تبين مظهر التعاطف معه .

وحالما وضعت تلك الرسالة في صندوق البريد ، نسيت السيد زاتيروكي . لكنه لم ينسني .

٣

وذات يوم ، بعد أن انهيت محاضرتي (فانا أدرس مادة تاريخ الرسم) جاءت السيدة ماري تطرق باب الصف ، وهي سكرتيرة وسيدة لطيفة مسنة تعد لي القهوة وتجيب بأنني لست موجوداً عندما تتصل بالهاتف ، اصوات انثوية غير مرغوبة . اطلت برأسها وقالت لي بانه يوجد سيد ينتظرني .

لا اشعر بالرهبة من السادة . فاستأنفت طلابي بالإنصراف وخرجت منشرح الصدر إلى الممر حيث حياني سيد ذو قامة قصيرة ويرتدي طقماً أسود بال وقميصاً ابيض . ثم اخبرني باحترام فائق انه يدعى زاتيروكي .

http://nj180degree.com

ادخلت زائري إلى حجرة فارغة واجلسته على كرسي مريح وبدأت الحديث بنبرة مرحة ، فتكلمت عن كل شيء وعن لاشيء ، عن صيف رديء نمضيه وعن معارض براغ . كان السيد زاتيروكي يوافقني بتهذيب على سخافاتي لكنه يحاول ربط كل منها مباشرة بمقالته التي وجدت فجأة بيننا بفحواها المكنون مثل مغناطيس لا يقاوم .

« قلت اخيراً : كنت سأكتب عن طيب خاطر تعليقاً حول عملك ، لكنني اوضحت لك في رسالتي بانه ما من أحد يعتبرني اخصائياً في فن الرسم التشيكي في القرن التاسع عشر وبانني لست على علاقة طيبة مع هيئة تحرير مجلة النزعة التشيكية التي تعتبرني حداثوياً متمكناً ، حتى ان الراي المؤيد من طرفي لا يمكن إلا ان يؤذيك .

ـ اجاب السيد زاتيروكي بسرعة : اوه ! إنك متواضع جداً ! كيف يمكن لاخصائي مثلك ان يكون متشائماً من موقفه ! قيل لي في هيئة التحرير بان كل شيء اصبح بعد الآن مرهوناً برايك . فإن كنت راضٍ عن مقالتي ، ستنشر . انت فرصتي الوحيدة . وهذا العمل يمثل ثلاث سنوات من الدراسات والبحوث . كل شيء الآن بين يديك » .

بأي استهتار ومن أي معدن صديء نسبك حيلنا ! لم يكن امامي مفر من إجابة السيد زاتيروكي على طلبه ، وحين رفعت بصري عفوياً لكي انظر إليه مباشرة، شاهدت نظارة صغيرة عتيقة وايضاً تفضحنا عميقاً حازماً يخدد جبهته عمودياً . وفي لحظة صفاء وجيزة ، سرت رعدة في أوصالي : لم يكن ذلك التغضن الحذر والمثابر يعبر فقط عن الجهد الذهني لصاحبه العاكف على رسوم ميكولاس اليس ، بل كان يعبر ايضاً عن قوة إرادة نادرة . ولانني فقدت كل نباهتي ، لم اعد لوفق في العثور على الاعتذارات اللبقة بما فيه الكفاية . كنت اعلم بانني لن اكتب التعليق ، لكنني اعلم ايضاً بانني عاجز عن مصارحة رجل متوسل بذلك وجهاً لوجه .

http://nj180degree.com

رحت ابتسم واتفوه بالوعود الغامضة ، فشكرني السيد زاتيروكي قائلا بانه سيعود عما قريب للاستعلام عن الموضوع ،ثم غادرته والابتسامات تتزاحم على ثغري .

وفعلا عاد بعد بضعة ايام ، فنجحت في تفاديه بمهارة ، لكنهم اخبروني في اليوم التالي بانه سأل عني ثانية في الكلية . ادركت ان الامر يسوء ، فذهبت في الحال للقاء السيدة ماري لاتخاذ التدابير اللازمة .

« من فضلك يا ماري ، إذا ما عاد ذلك السيد وسأل عني فقولي له بانني سافرت في بعثة دراسية إلى المانيا وانني لن اعود قبل شهر . امر آخر : موعد جميع محاضراتي يومي الثلاثاء والاربعاء . بعد الآن سألقي محاضراتي يومي الخميس والجمعة . سيعلم طلابي فقط بذلك فلا تخبري احدا بهذا ولا تعدلي البرنامج . يجب ان ابقى متخفيا » .

٤

جاء السيد زاتيروكي فعلا بعد فترة وجيزة يسأل عني في الكلية وبدا يائسا عندما اخبرته السكرتيرة باني سافرت على عجل إلى المانيا . « هذا مستحيل ! يترتب على السيد المعاون كتابة تعليق على مقالتي ! كيف استطاع السفر هكذا ؟ ــ ردت السيدة ماري بسرعة : لا اعلم شيئا من ذلك لكنه سيعود بعد شهر . ــ تذمر السيد زاتيروكي قائلا : بشهر ايضا الا تعرفين عنوانه في المانيا ؟ ــ قالت السيدة ماري : لا اعرفه » .

ونعمت بالهدوء طوال شهر .

لكن الشهر انقضى بأسرع مما كنت اتصور وعاد السيد زاتيروكي إلى مكتب السكرتيرة . قالت له السيدة ماري : « لا ، لم يعد بعد » وحين التقتني ، سألتني بنبرة متوسلة : « عاد صاحبك ثانية ، فلماذا تريدني ان اقول له ؟ ــ قولي له بانني مصاب بالبرقان في المانيا وانني نزيل المشفى في بينا » هتف السيد زاتيروكي حين اخبرته السكرتيرة بالنبأ بعد بضعة

http://nj180degree.com

ايام : « في المشفى ؟ لكن هذا مستحيل ، لا بد للسيد المعاون من كتابة تعليق القراءة على مقالتي ! ــ قالت السكرتيرة بنبرة تعنيف : يا سيد زاتيروكي ، السيد المعاون مصاب بمرض خطير في الغربة وانت لا تفكر إلا بمقالتك ! » غاص رأس السيد زاتيروكي بين كتفيه وخرج ، لكنه حضر من جديد بعد خمسة عشر يوماً : « ارسلت رسالة مسجلة إلى بينا . فعادت الرسالة إلي ثانية ! » وفي اليوم التالي قالت لي السيدة ماري : « ساصبح مجنونة من صاحبك . لا تغضب ، لكن ماذا كنت تريدني ان اقول لـه ؟ قلت له بانك عـدت ، فعليك ان تتـدبر امرك بنفسك معه ! » .

لم الم السيدة ماري ، فقد كانت تبذل قصارى جهدها وفوق ذلك لم اكن عازما على الاعتراف بهزيمتي . كنت اعلم انني صعب المنال . ولم اعد احيا إلا متخفياً ، فالقي محاضراتي في الخفاء يومي الخميس والجمعة ، واحضر يومي الثلاثاء والأربعاء متخفيا ايضا ، اليد متوارية في عمارة مقابل الكلية واتسلى بمنظر السيد زاتيروكي الذي يترصد خروجي من الكلية . كنت ارغب بوضع لحية وشعر مستعارين . واحسب نفسي شارلوك هولز وجاك ليفنترور ، والرجل الخفي يجوب المدينة . كنت في غاية البهجة .

لكن الأمر انتهى بالسيد زاتيروكي ذات يوم إلى التعب من الترصد وتمادى على السيدة ماري « لكن متى يلقي الرفيق المعاون محاضراته ؟ فاجابت السيدة ماري بسرعـة : ليس عليك سوى مراجعة البرنامج . واشارت إلى لوحة مربعـة على الحائط حيث توقيت المحاضرات موضع بدقة نموذجية .

ــ قال السيد زاتيروكي الذي لم ينخدع بذلك : اعرف ، لكن الرفيق لا ياتي ابداً لإلقاء محاضراته يوم الثلاثاء ولا يوم الأربعاء . هل هو متوقف عن العمل ؟

http://nj180degree.com

ـ اجابت ماري بضيق : كلا »

وعندئذ اهان الرجل القصير السيدة ماري . وبخها لانها لم تضع البرنامج بدقة . سألها بسخرية إن كان يحق لها تجاهل الموعد الذي يلقي فيه الأساتذة محاضراتهم واعلن انه سيقدم شكوى ضدها . ثم زعق وصرح انه سيشكو ايضا الرفيق المعاون الذي يتغيب عن محاضراته ، سألها إن كان مدير الجامعة موجودا .

ولسوء الحظ كان مدير الجامعة موجودا .

طرق السيد زاتيروكي باب مكتبه ودخل . ثم عاد بعد عشر دقائق إلى مكتب السيدة ماري وسألها بجفاف عن عنوان منزلي الشخصي .

« قالت ماري : ٢٠ شارع سكالنيكوفا ، في ليتوميسل .

ـ وكيف ذلك ، في ليتوميسل ؟

ـ ليس لدى السيد المعاون إلا منزل مؤقت في براغ ولا يرغب ان اخبرك بعنوانه ...

ـ صاح الرجل القصير بصوت مرتعش : إنني مصر على معرفة عنوان منزل السيد المعاون في براغ » .

وهنئت عزيمة السيدة ماري تماما . فكتبت عنوان سقيفتي وملجأي البائس وخلوتي السعيدة التي اصبحت مطرودا منها .

٥

أجل ، في ليتوميسل عنوان إقامتي الدائم . فهناك امي وذكريات ابي ؛ وكلما اتيحت لي الفرصة ، اغادر براغ كي اذهب للعمل والدراسة في المنزل ، في مسكن أمي الصغير . بحيث انني احتفظت بعنوان والدتي

http://nj180degree.com

كعنوان دائم لاقامتي . اما في براغ ، فلم افلح في العثور حتى على شقة صغيرة مناسبة مع ان ذلك ضروري وعادي ، وكنت اقطن في الضواحي مستأجراً سقيفة صغيرة مستقلة تحت السقوف ، آوي إليها ما اتاحت لي الحياة سبيلا لذلك حتى اتحاشى مع صاحباتي العابرات اللقاء العابث بالزائرين المقيتين .

لا يمكنني إذا الادعاء بأن سمعتي في العمارة كانت طاهرة الذيل تماما . وفوق ذلك ، اسكنت في حجرتي مرارا ، اثناء قضائي لاجازاتي في ليتوميسل ، رفاقي الذين كانوا يمرحون فيها لدرجة ان احداً في المنزل لم يكن يفلح في إغماض جفنيه طوال الليل . كان كل هذا يثير سخط بعض المستأجرين الذين راحوا يشنون ضدي حملة شعواء اخذت تتبدى من حين لآخر في الآراء التي يتداولها بشأني مجلس الحي وحتى مكتب الشكاوى في دائرة الاسكان .

بدأت كلارا في الفترة التي اتحدث عنها تشعر بمشقة المجيء من سيلاكوفيس للعمل في براغ ، فقررت النوم عندي ، بانيء ذي بدء ، بخجل وفي الحالات الطارئة ، ثم اودعت ثوبا وبعد ذلك عدة اثواب ، وخلال فترة وجيزة انحشرت بزتاي في اسفل الخزانة وتحولت سقيفتي إلى صالون نسائي .

كنت اشعر بميل شديد نحو كلارا ؛ ولانه يسرني ان يلتفت الناس إلينا لدى خروجنا معاً ، ولأنها تصغرني بثلاثة عشرة عاماً وهذا ما كان يزيد من هيبتي في عيون طلابي ؛ وباختصار كان لدي الف سبب للتمسك بها . ومع ذلك لم اكن ارغب بأن يعرف الناس انها تسكن عندي . فقد كنت اخشى ان يتهجموا على مالك منزلي الطيب ، وهو رجل مسن يبدو وقورا وغير مهتم بأمري ، وكنت اخاف ان يأتي ذات يوم ممتعضا ومغموما لكي يرجوني ان اطرد صديقتي حتى يحافظ على سمعته الطيبة . لذلك تلقت كلارا تعليمات صارمة تلزمها بعدم فتح الباب لاحد .

http://nj180degree.com

يومئذ ، كانت وحيدة في المنزل . كان نهارا جميلا ومشمسا ، اما جو السقيفة فخانق تقريبا . كانت قد استلقت على اريكتي عارية واستغرقت في تامل السقف .

عندئذ بدا الباب يطرق .

لم يكن ثمة شيء يدعو للقلق ، بما انه لا يوجد جرس على باب السقيفة ، فالزائرون مضطرون لقرعه . إذا لم تكن تعكر هذه الضوضاء صفو كلارا ولم يخطر ببالها ان تقطع تاملها السقف . لكن الطرق المتوالي على الباب ظل مستمراً ؛ فقد كان يتواصل على غير العادة بهدوء ومثابرة غامضة . وانتهى الامر بكلارا لان تصبح عصبية ، فراحت تتخيل امام الباب سيداً يتفحص ببرود وعناية باقة سترته ، سيداً سيسالها بعد ذلك بغظاظة لماذا لم تفتح الباب ، وعما كانت تخفيه وفيما إذا كانت مصرحة بعنوانها . رزحت تحت وطاة الشعور بالذنب وكفت عن التحديق بالسقف واجالت بصرها إلى المكان الذي وضعت فيه ملابسها . لكن الطرقات كانت لجوجة حتى انها لم تجد في غمرة اضطرابها سوى سترتي الواقية من المطر المعلقة في المدخل . ارتدتها وفتحت الباب .

وبدل ان تشاهد على العتبة وجها خبيثا فضوليا ، فوجئت برجل قصير يحييها : « هل السيد المعاون في منزله ؟ ــ لا ، لقد خرج ــ قال الرجل القصير : خسارة ، ثم اعتذر بتهذيب : على السيد المعاون كتابة تعليق القراءة على مقالة الفتها . هو وعدني بذلك وقد اصبح هذا الامر ملحاً الآن . إذا سمحت ، اود ان اترك له رسالة على كل حال » .

ناولت كلارا الرجل القصير ورقة وقلم رصاص . وفي المساء قرات بان مصير مقالته حول ميكولاس اليس اضحى بين يدي وان السيد زاتيروكي ينتظر باحترام تحريري للتعليق الموعود . اضاف بانه سيسال عني ثانية في الكلية .

http://nj180degree.com

٦

اخبرتني السيدة ماري في اليوم التالي بأن السيد زاتيروكي توعدها واهانها وكاد ان يقدم شكوى ضدها ؛ كان صوت المسكينة يتهدج ، وتوشك ان تذرف الدموع ؛ فاعتراني الغيظ هذه المرة . كنت ادرك وحسب ان السيدة ماري التي استمتعت حتى ذلك الحين بذاك الجزء من لعبة التخفي (بدافع التعطف معي أكثر من دافع اللهو الصريح) ، باتت تشعر الآن بالإهانة وبالطبع تعتبرني سبب همومها . وحين اضفت إلى هذه الإهانات اضطرار السيدة ماري للبوح بعنوان ملحقي ، وانه طرق بابي طيلة عشر دقائق واخاف كلارا ، فإن غيظي تحول إلى غضب .

وبينما كنت حاضراً ، اتمشى في مكتب السيدة ماري ، واشعر بالندم والغيظ واتخيل طريقة الانتقام ، فتح الباب وظهر السيد زاتيروكي .

حين شاهدني ، اشرق وجهه بالسعادة . انحنى وحياني باحترام.

لقد وصل باكراً قبل ان افرغ من تدبير خطة انتقامي .

سألني إن كنت قد استلمت رسالته في الأمس .

لم احر جواباً .

كرر سؤاله .

اجبت اخيراً : « اجل

ـ وهل ستكتب التعليق ؟ »

القيته امامي : هزيلاً وعنيداً ومخيفاً ؛ كنت ارى التغضن العمودي الذي يرسم على جبهته علامة شغف فريد ؛ رحت اتملى تلك العلامة فادركت انها عبارة عن مستقيم محدد بنقطتين : بتعليق القراءة وبمقالته ؛

http://nj180degree.com

وانه ما عدا آفة هذا الخط المهووس ، ليس في حياته شيء سوى تزهد خليق بقديس . واستسلمت لعدوانية منقذة .

قلت :« آمل ان تدرك بانه لم يعد لدي شيء اقوله لك بعدما حصل في الامس .

ـ لا افهمك .

ـ لا تتظاهر بما لا تضمر . لقد اخبرتني بكل شيء . لن يفيدك الإنكار .

ـ كرر الرجل القصير من جديد ، لكن بنبرة اكثر حزما هذه المرة : لا افهمك » .

اتخذت نبرة مرحة وتقريبا ودية : « اسمع يا سيد زاتيروكي ، لا ارغب بلومك . انا ايضا زير نساء وافهمك . انا ايضا لو كنت مكانك لراودت فتاة جميلة عن نفسها بسرور ، إن الفيت نفسي وحيدا معها في شقة وإذا كانت عارية تحت واقي المطر » .

امتقع لون الرجل القصير : « هذه إهانة !

ـ لا ، إنها الحقيقة يا سيد زايتروكي .

ـ هل اخبرتك السيدة بذلك ؟

ـ إنها لا تخفي اسرارها عني .

ـ هذه إهانة ايها الرفيق المعاون ، إنني متزوج ! عندي زوجة ! ولدي اطفال » تقدم الرجل القصير خطوة إلى الامام ، فاضطررت للانكفاء إلى الخلف .

http://nj180degree.com

« وهذا ظرف مشدد للعقوبة يا زايتروكي .

ـ ماذا تعني ؟

ـ أعني أن الزواج بالنسبة لزير النساء هو حالة مشددة للعقوبة .

ـ قال السيد زايتروكي بنبرة متوعدة : ستتراجع عن هذه الكلمات !

ـ قلت : موافق ! الزواج بالنسبة لزير النساء ليس حالة مشددة للعقوبة . لا أهمية لهذا ! قلت لك بأنني لست عاتباً عليك وأنني أفهمك تماماً . لكن رغم كل شيء ثمة أمر لا أحتمله ، وهو أنك تستطيع مطالبة رجل بتحرير تعليق القراءة حول مقالتك بينما تحاول إغراء صديقته .

ـ الرفيق المعاون ! إن من يطلب التعليق هو السيد كالوزيك الحائز على دكتوراه في الآداب ورئيس تحرير مجلة الفكر التشكيلي ، المجلة الدورية الصادرة بإشراف أكاديمية العلوم ، وعليك أن تكتبه !

ـ اختر ! التعليق أم صديقتي . لا يمكنك أن تبغي كليهما .

ـ هتف السيد زايتروكي وقد وقع فريسة غضب يائس : « ما هذا السلوك ! »

أمر غريب ، فقد صار يراودني شعور مفاجيء بأن السيد زايتروكي نوى جقيقة إغراء كلارا . انفجرت بدوري وردت أصيح : « أتسمح لنفسك بوعظي ؟ أنت الذي يفترض بك أن تقدم لي ما بوسعك من الاعتذارات أمام سكرتيرتي ! »

وأوليت ظهري للسيد زايتروكي الذي خرج من الحجرة مترنحاً ويائساً .

http://nj180degree.com

« الحمد لله ! » قلت مطلقاً تنهيدة بعد هذه المعركة الصعبة لكن منتصراً ، واضفت من أجل السيدة ماري : « اعتقد انه سيريحني الآن من تعليق القراءة ! »

« ولماذا لا تريد أن تحرر له ذلك التعليق ؟

ـ لأن مقالته يا عزيزتي ماري عبارة من سلسلة من السخافات .

ـ ولماذا لا تكتب تعليقاً لتقول فيه بانها سلسلة من السخافات ؟

ـ ولماذا علي انا كتابة ذلك ؟ ولماذا يترتب علي انا أن أصنع لنفسي أعداء ؟ »

كانت السيدة ماري تنظر إلي وعلى محياها ابتسامة عريضة عندما فتح الباب من جديد ، فظهر السيد زايتروكي مادا ذراعه امامه :

« سنرى من سيقدم الاعتذارات للآخر ! »

قذف هذه الكلمات بصوت متهدج واختفى .

٧

لم اعد اذكر بدقة ، في اليوم نفسه أم بعد بضعة أيام ، وجدنا مغلفاً دون عنوان في صندوق البريد . كان المغلف يحتوي على ورقة قرانا فيها هذه الكلمات المكتوبة بخط غليظ ورديء : سيدتي ! تعالي إلى منزلي يوم الأحد لكي نتكلم عن الإهانة التي لحقت بزوجي ! ساكون في المنزل طيلة النهار . إذا لم تأتِ ، سألفي نفسي مضطرة للتصرف . آنا زاتيروكي ، براغ ، الشارع ٣ ، داليمولوفا ١٤ .

شعرت كلارا بالخوف وراحت تحملني المسؤولية . طردت مخاوفها بظاهر يدي وأكدت لها ان معنى الحياة هو تعلما اللهو مع الحياة ، وبما

http://nj180degree.com

ان الحياة رتيبة جداً لذلك يجب تخليصها من ركودها . وعلى الانسان دوما أن يسَرجَ أحصنة عديدة من أجل مغامرات جديدة وإلا قد يتعفر في التراب مثل جندي مشاة متعب . عندما اجابتني كلارا بأنها لا تنوي الإسراج لأية مغامرة ، وعدتها بأنها لن تقابل أبداً السيد زاتيروكي ولا زوجته ، وان المغامرة التي اخترت طوعاً امتطاءها ، سأروضها دون مساعدة أحد .

استوقفنا البواب في الصباح حين كنا نخرج من العمارة . البواب ليس غريماً . كنت قد منحته من دراية خمسين كوروناً منذ بعض الوقت وأصبحت مستسلماً منذ ذلك الحين لاعتقاد مبهج بأنه اعتاد التغاضي عني وأنه لم يعد يثر الضغائن التي يغذيها أعدائي في العمارة ضدي .

قال : « طلبك شخصان البارحة .

ــ من هما ؟

ــ قزم مع زوجته .

ــ كيف كانت زوجته ؟

ــ كانت أطول منه برأسين . امرأة حازمة جداً . صارمة . طلبت معلومات عن كل شيء» ثم خاطب كلارا : «لا سيما عنك. كانت تريد معرفة من تكونين وما اسمك .

ــ صاحت كلارا : يا الهي ، وماذا قلت لها ؟

ــ وماذا تريدين أن اقول لها ؟ وهل أعرف من يأتي إلى منزل السيد المعاون ؟ اخبرتها بأن فتاة جديدة تزوره في كل مساء .

ــ قلت : هذا ممتاز ، واخرجت قطعة نقدية من فئة ١٠ كورون من جيبي . تابع هكذا !

http://nj180degree.com

ـ قلت بعد ذلك لكلارا : لا تخشي شيئا ، لن تذهبي يوم الاحد إلى اي مكان ولن يعترض سبيلك احد » .

جاء يوم الاحد وتلاه الاثنين والثلاثاء والاربعاء . لم يحدث شيء . وقلت لكلارا « هل رايت » .

لكن يوم الخميس اقبل . كنت قد شرحت لطلابي ، في موعد المحاضره السري كالعادة ، كيف حرر اتباع المدرسة الوحشية الشباب بتضامنهم النبيل وحماستهم الملون من الانطباعية الوصفية ، حين جاءت السيدة ماري وفتحت الباب وقالت لي بصوت خافت : « زوجة زالتيروكي تسال عنك ! ـ لكنك تعلمين بانني لست هنا ، دليها على البرنامج » لكن السيدة ماري هزت راسها : « قلت لها بانك لست موجودا لكنها القت نظرة على مكتبك وشاهدت سترتك الواقية من المطر معلقة على الشجب . وهي ما تزال تنتظرك في الممر » .

الوقوع في مازق هو مجال لاختبار عبقريتي الخارقة . قلت لطالبي الاثير : « هل يمكنك ان تؤدي لي خدمة ؟ اذهب إلى مكتبي وارتدي سترتي الواقية من المطر واخرج من الكلية ! ستحاول امراة التاكد من انك انا ، لكن مهمتك بالضبط هي إنكار ذلك باي ثمن » .

خرج الطالب وعاد بعد ربع ساعة . اخبرني بان المهمة انجزت والطريق سالكة والسيدة انصرفت .

لقد ربحت هذه المرة .

لكن يوم الجمعة جاء ؛ وعندما عادت كلارا من عملها في المساء كانت ترتعش .

في ذلك اليوم ، فتح السيد اللبق الذي يستقبل زبائنه في صالة المؤسسة الانيقة فجاة الباب المفضي إلى داخل الورشة التي تعمل بها

http://nj180degree.com

كلارا ، وهي عاكفة على مكنة خياطة بصحبة خمسة عشرة عاملة أخرى ، وصاح : « هل تقطن أخداكن في ٥ ، شارع دي شاتو ؟ » .

ادركت كلارا في الحال انها المقصودة ما دام ٥ ، شارع دي شاتو هو عنواني . لكنها بسبب الحرص الشديد الذي رسختته في ذهنها بعناية، لم تخطىء ، لانها تعلم بانها تسكن عندي خفية وبان ذلك لا يخص احداً . فقال السيد اللبق وهو يلاحظ ان العاملات قد صمتن : « وهذا ما قلته لها بالضبط » ثم خرج . علمت كلارا بعد ذلك ان صوتاً انثوياً صارماً ارغمه من خلال محادثة هاتفية على مراجعة عناوين مستخدماته وحاول جاهداً طوال ربع ساعة إقناعه بأن إحداهن تسكن ولا بد في ٥ ــ شارع دي شاتو .

خيم شبح السيد زاتيروكي على سقيفتنا البريئة .

قلت رافعاً وتيرة صوتي : « لكن كيف تسنى لها اكتشاف مكان عملك ؟ لا احد هنا في العمارة يعلم شيئاً عنك ! »

اجل ، كنت بالفعل مقتنعاً بان احداً لا يعلم شيئاً عن حياتنا . كنت اعيش مثل هؤلاء الاشخاص الغريبي الاطوار الذين يعتقدون بانهم يفلتون من نظرات التطفل بالتجائهم إلى الاسوار العالية ، لانهم يتغافلون عن إدراك امر ثانوي : وهو ان تلك الاسوار من الزجاج الشفاف .

كنت ارشو البواب لكي لا يبوح بان كلارا تقيم عندي ، وافرض على كلارا التكتم والتخفي الصارمين ، ورغم ذلك ، علم كل قاطني العمارة بوجودها . حسبها انها تورطت ذات يوم في محادثة متهورة مع مستاجرة في الطابق الثاني فاصبح الناس يعرفون اين تعمل .

ودون ان ننتبه للأمر ، كنا مفضوحين منذ زمن طويل . امر وحيد ما زال بعيداً عن متناولنا : اسم كلارا . وبفضل هذا السر الصغير كان

http://nj180degree.com

ما يزال يوسمنا الفرار من السيدة زاتيروكي التي تخوض الصراع بروح منهجية ومناد يجعل القشعريرة تسري في جسدي .

ادركت ان الامر اصبح جدياً ، وان جواد مغامرتي قد اسرج جيداً هذه المرة .

٨

حصل ذلك إذاً يوم الجمعة . وحين عادت كلارا من عملها يوم السبت كانت ايضاً مرتعشة تماماً . وإليكم ما حدث :

جاءت السيدة زاتيروكي بصحبة زوجها إلى مؤسسة الالبسة الجاهزة التي هاتفتها بالامس ، وطلبت من المدير الاذن بزيارة الورشة مع زوجها وتفحص وجوه العاملات الحاضرات . وطبعاً انتهش الرفيق من التماس كهذا ، لكن كان من المستحيل صرف النظر عن الامر امام موقف السيدة زاتيروكي . تفوهت ببضعة كلمات محيرة تتعلق بموضوع القذف والشتم والحياة البائسة والقضية . كان السيد زاتيروكي يقف إلى جانبها صامتاً وعاقداً حاجبيه .

وهكذا دخلا إلى الورشة . رفعت الخياطات رؤوسهن بلامبالاة وتعرفت كلارا على الرجل القصير ، فشحب وجهها وتابعت الخياطة برزانة بالغة .

قال المدير بتهذيب ساخر للزوجين المذهولين : « ارجوكم » ادركت السيدة زاتيروكي بان عليها الامساك بزمام المبادرة فقالت مشجعة زوجها : « حسناً ، انظر ! » رفع السيد زاتيروكي بصره الكئيب الذي جال الحجرة من اولها إلى آخرها . سألت السيدة زاتيروكي بصوت خافت : « هل هي هنا ؟ »

ورغم ارتدائه نظارتيه ، لم تكن لدى السيد زاتيروكي قوة الإبصار الكافية لكي يحتضن بنظرة هذا المكان الفسيح المضطرب ، المزدحم بكل

http://nj180degree.com

المستقنط وبالملابس المعلقةعلى قضبان طويلة افقية، مع العاملات المشاغبات اللاتي لم يقتربن للوقوف ساكنات مقابل الباب ، بل كن يولين ظهورهن ويتحركن على كراسيهن ويرفعن أو يشحن وجوههن . عقـد السيد زاتيروكي اخيراً العزم على التقدم في الورشة لكي يتفحصهن الواحدة تلو الأخـرى .

حين ألفت النسوة انفسهن محط أنظار شخص غير جـذاب ، اعتراهن شعور غامض بالخجل وعبّرن عن استيائهن بالمزاح والنحنحة . هتفت إحداهن وهي شابة جريئة : « يفتش في كل مكان عن العاهرة التي حَمَلَ منها ! » .

انصب ضحك النساء الشديد والرنان على الزوجين اللذين جابهاه بكبرياء غريب ، خجلين ومثابرين .

« صاحت الوقحة للسيدة زاتيروكي : ماما ، أنت تهملين ولدك ! لو كان لدي غلام في جماله لما تدخل فيما لا يعينيه .

ــ انظر » اخذت الزوجة تهمس لزوجها ، والرجل القصير المسكين ، بهيئة كئيبة وخجلة ، يطوف في الورشة خطوة خطوة ، كانه يتقدم بين صفين من الضربات والإهانات ، لكن بمشية واثقة ودون أن يسهو عن تملـي أي وجـه .

راح المدير اثناء هذا المشهد يبتسم ابتسامة محايدة ، فهو يعرف عاملاته ويعلم انه لن يتغلب عليهن ، لذلك توجه بالسؤال الى السيد زايتروكي متظاهراً بعدم سماع ضجيجهن : « لكن كيف كانت تلك المرأة ؟ »

التفت السيد زاتيروكي نحو المدير واجاب بصوت هادىء وخفيض « كانت جميلة ... جميلة جداً ... » .

بدات كلارا في هذه الاثناء تنكمش على نفسها في ركن الحجرة، وتتميز عن جميع هؤلاء النسوة الصاخبات بهيئتها القلقـة ورأسها المطاطيء

http://nj180degree.com

ونشاطها المحموم . آه ، ما اردأ دور الفتاة المتواضعة والمنزوية الذي تؤديه ! والسيد زاتيروكي بات الآن على مسافة خطوتين من آلتها ، ويوشك ان يتفرس فيها بين لحظة واخرى !

لفت الرفيق المدير بادب نظر السيد زاتيروكي : « انت تتذكر انها كانت جميلة لكن هذا لا يفيد شيئاً يوجد الكثير من النساء الجميلات ! كانت طويلة ام قصيرة ؟

ـ قال السيد زاتيروكي : طويلة .

ـ سمراء ام شقراء ؟

ـ اجاب السيد زاتيروكي بعد لحظة من التردد : شقراء » .

يمكن لهذا الجزء من قصتي أن يُضرب مثلاً على سطوة الجمال، فحين شاهد السيد زاتيروكي كلارا في منزلي ، فتنه جمالها لدرجة انه لم يراها في الحقيقة . كان الجمال يبسط امام عينيه نوعاً من الحاجز الكتوم . حاجز ضوئي يحجبها كالخمار .

لان كلارا ليست طويلة ولا شقراء . وحده المعيار الداخلي للجمال كان يفسح المجال امام ناظري السيد زاتيروكي لإظهارهـا بهيئة الطول الجسدي . وكان النور المنبعث من الجمال يبدي شعرها بلون ذهبي .

حين وصل الرجل القصير اخيراً إلى زاوية الحجرة حيث كانت كلارا بمريولها الكستنائي تعكف على اجزاء تنورة بتململ ، لم يعرفها . لم يعرفها لانه لم يكن قد شاهدها ابداً .

٩

بعد ان اتمت كلارا سرد حكايتها بأسلوب ركيك لكنه واضح ، قلت لها : « كما ترين ، نحن محظوظان ! » .

http://nj180degree.com

لكنهـا استنكرت وهي تنتحب : « كيف تكون محظوظين ؟ إذا لم يجداني اليوم ، فسيعثران علي في الغد .

ـ اود ان اعرف كيف .

ـ سيأتيان للبحث عني هنا ، في منزلك .

ـ لن افتح الباب لاحد .

ـ وإذا ارسلا الشرطة ؟ وإذا اصرا وارغماك على البوح باسمي . لقد تكلمت عن رفع شكوى تتهمني فيها باغتياب زوجها .

ـ ارجوكِ ! ساجعلها هزاة . لم يكن كل ذلك سوى مزحة .

ـ ليس هذا عصر المزاح ، فالناس في الوقت الحالي يأخذون كل شيء على محمل الجد ؛ سيدعيان بانني اردت تلطيخ سمعته عمداً . كيف تريد ان يصدق الناس بانه اراد إغراء امراة عندما سيرونه ؟

ـ قلت : إنك محقة يا كلارا ، وسيلقى القبض عليك على الارجح .

ـ اجابت كلارا : إنك تهذي بالحماقات . فانت تعلم بانه يجب على ان اكون حذرة . ولا تنسى من هو والدي . إن مثولي امـام محكمة جزائية ، حتى لمجرد التحقيق ، سيدرج في ملفي ، ولن اتخلص ابداً من الورشة . بهذا الخصوص ، اود لو اعرف اين هي وظيفة عارضة الازياء التي وعدتني بها . ومن جهة اخرى ، لم اعد ارغب بقضاء الليل في منزلك ، هنا ساظل خائفة من ان يأتيان للبحث عني ، ساعود الى سيلاكوفيس » .

كانت هذه اول مناقشة في النهار .

http://nj180degree.com

وحدثت مناقشة اخرى بعد ظهر اليوم نفسه ، بعد اجتماع الهيئة التدريسية في الإدارة .

ادخلني مدير الإدارة ، وهو باحث ضليع في تاريخ الفن وسيد متسامح ، ادخلني الى مكتبه .

قال لي : « الدراسة التي نشرتها مؤخراً تزعزع كثيراً من مركزك ، وانت تعلم ذلك على ما اعتقد .

ـ اجبت : اجل ، اعلم ذلك .

ـ هنا في الكلية ، يشعر اكثر من استاذ انه المقصود ومدير الجامعة يحسب انها هجوماً موجهاً ضد افكاره .

ـ قلت : وما الضير في ذلك ؟

ـ اجاب الاستاذ : لا شيء . لكن المعاونين معينون لمدة ثلاث سنوات. وما يسنيك في هذا الامر هو ان الفترة توشك تقريباً على الإنتهاء ، وسيمنح المنصب في مسابقة على الالقاب . من المعروف طبعاً ان المجلس يقلد المنصب لمرشح درّس سابقاً في الكلية ، لكن هل انت متاكد من انهم سيراعون هذا العرف في حالتك ؟ اخيراً ، ليس هذا ما كنت اريد محادثتك به . حتى الآن ما تزال توجد حجة لصالحك ، كنت تلقي محاضراتك بنزاهة وقد احبك الطلاب وتعلموا شيئاً مفيداً منك . لكن لم يعد بوسعك التعويل حتى على ذلك . اخبرني مدير الجامعة للتو بانك لم تلق محاضرات منذ ثلاثة اشهر بدون اي عذر . وقد يكون هذا سبباً كافياً لفصلك فوراً » .

شرحت للأستاذ بانني لم اهمل اية محاضرة ، وان كل ذلك لم يكن سوى مزحة واخبرته بتفاصيل قصة زاتيروكي وكلاوا .

http://nj180degree.com

قال الاستاذ : « حسناً ، اصدقك . لكن تصديقي لك لا يغير شيئا في القضية . يتحكى الآن في كل الكلية بانك لا تلقي محاضراتك . فقد اثير الموضوع سابقاً في لجنة المشروع ، وبالأمس في مجلس الكلية .

ـ لكن لماذا لم يكلموني عن هذا الامر من قبل ؟

ـ عن ماذا تريد ان يكلموك؟ كل شيء واضح على ما يبدو . يراجعون الآن كل مسيرتك الماضية ويبحثون عن علاقة بين ماضيك وموقفك الحالي.

ـ ما السوء الذي يمكن أن يجدوه في ماضي ؟ انت نفسك تعلم مقدار حبي لعملي . لم اتخلف ابداً عن محاضرة . إنني مرتاح الضمير .

ـ قال الاستاذ : كل حياة إنسانية تزخر بالمعاني . فمهما يكن ماضي اي شخص منا ، يمكن أن يصبح سيرة رئيس دولة مثلما يمكن ان يصبح سيرة مجرم ، بحسب الطريقة التي نعرضه بها . لاحظ فقط بعمق حالتك الشخصية . فلما كان الناس يشاهدونك في الإجتماعات ، وحتى عندما كنت تأتي إليها ، كنت تظل صامتاً في الغالب . لم يكن بوسع احد معرفة ما تفكر فيه على وجه الدقة . إنني اتذكر شخصياً انك كنت تلقي فجاة فكاهة تثير الشكوك عندما كنا نتداول في امور جدية . كانت تلك الشكوك تنسى في الحال ، أما اليوم ، فإنها تتخذ فجاة مفهوماً محدداً عندما يتصيدونها من الماضي . أو تذكر اولئك النسوة اللواتي كنت تجعل السكرتيرة تجيبهن بانك لست موجوداً ! أو لنأخذ دراستك الأخيرة ، فمن خلالها يمكن لأي شخص ان يؤكد بانها كتبت إنطلاقاً من وجهات نظر سياسية مشبوهة . هذه بالتاكيد ليست سوى وقائع متفرقة ؛ لكن يكفي تأملها على ضوء جريرتك الحالية لكي تشكل مجموعاً مترابطاً يعبر ببلاغة عن عقليتك وموقفك .

ـ هتفت : لكن اية جريرة ! سأوضح علناً الأمور كما حدثت ؛ وإذا كانت الكائنات الإنسانية كائنات إنسانيـة فلن يسعها إلا ان تضحك من ذلك .

http://nj180degree.com

ـ كما تشاء . لكنك ستدرك ان الكائنات الإنسانية ليست كائنات إنسانية او انك لم تكن تعرف ما هي الكائنات الإنسانيـة . إنهم لن يضحكوا . إذا شرحت لهم الأمور كما حدثت ، فانهم لن يتاكدوا وحسب من انك لم تؤد عملك كما هو مدون في البرنامج ، اي انك لم تقم بما يمليه عليك واجبك ، بل وانك فوق ذلك القيت محاضراتك خفية ، اي انك قمت بما لا ينبغي عليك القيام به . سيتاكدون بالتالي من انك اهنت الرجل الذي كان يطلب منك مساعدته . سيتاكدون من انك تعيش حياة فاسقة ، وأن فتاة تسكن عندك دون تصريح ، وهذا ما سيولد انطباعاً معاكساً تماماً لدى رئاسة لجنة المشروع . سينشر الخبر بالتاكيد والله أعلم اية شائعات سيثير ، وسط الفرحة العارمة لأولئك الذين يكرهونك بسبب أفكارك لكنهم يؤثرون مهاجمتك بحجة اخرى » .

كنت اعلم أن الأستاذ لا يسعى إلى إخافتي ولا إلى خداعي ، لكنني كنت أجله كإنسان أصيل ولم اكن أود الانسياق وراء شكوكه . لقد امتطيت هذا الجواد بنفسي ؛ فليس بوسعي إذاً القبول بنزع اللجام من يدي والجموح بي إلى حيث يشاء . كنتُ مستعداً لخوض المعركة .

ولم يكن الجواد يرفض القتال . حين عدت إلى منزلي ، وجدتُ في صندوق البريد استدعاء لحضور الاجتماع القادم للجنة الحي .

١٠

كانت لجنة الحي تجتمع حول طاولة طويلة في حانوت قديم خصص لهذه الغاية . دلني رجل أسمر ، يرتدي نظارتين وذو ذقن مائلة ، على الكرسي . شكرته وجلست ثم افتتح الكلام . اخبرني بان لجنة الحي كانت تراقبني منذ بعض الوقت ، وانها تعلم جيداً بانني اعيش حياة فاسقة ، وهذا ما يولد إنطباعاً سيئاً في محيطي ؛ وأن مستأجري العمارة التي اقطنها قد اشتكوا آنفاً من عدم قدرتهم على النوم طوال الليل بسبب الضوضاء في منزلي ؛ وأن كل هذا كان يكفي لتكوين فكرة صائبة عن

http://nj180degree.com

شخصيتي ؛ وانه فوق ذلك ، جاءت الرفيقة زاتيروكي ، وهي زوجة باحث علمي ، تلتمس مساعدة لجنة الحي : كان يترتب علي منذ اكثر من ستة اشهر تحرير تعليق على العمل العلمي لزوجها ولم أقم بذلك ، مع انني أعلم تماما ان مصير هذا العمل بين يدي .

« علقت مقاطعا الرجل ذو الذقن المائلة : من الصعب نعت هـذا العمل بالعلمي ، لانه انتحال لافكار مجمعة !

ـ تدخلت عندئذ شقراء في الثلاثين من عمرها ، مرتدية ملابس امرأة من المجتمع الراقي ، بابتسامة مشرقة ملتصقة بوجهها (دوما على ما يبدو) : هذا غريب ايها الرفيق . اسمح لي بأن اطرح عليك سؤالا : ما هو اختصاصك ؟

ـ تاريخ الفن .

ـ وما هو اختصاص السيد زاتيروكي ؟

ـ لا اعلم شيئا عنه . ربما يسعى للعمل في الميدان نفسه .

ـ هتفت الشقراء متوجهة إلى اعضاء اللجنة الآخرين : انتبهوا . اي باحث علمي في اختصاص الرفيق ليس رفيقا بالنسبة له ، بل غريما .

قال الرجل ذو الذقن المائلة : سأتابع . قالت لنا الرفيقة زاتيروكي بأن زوجها جاء لمقابلتك في منزلك وصادف فيه امرأة . ويبدو ان تلك المرأة افترت عليه بعد ذلك امامك ، مدعية ان الرفيق زاتيروكي حاول مراودتها عن نفسها . يمكن للرفيقة زاتيروكي طبعا الإدلاء ببراهين قاطعة يستنتج منها ان زوجها ليس مؤهلا للإتيان بهكذا فعل . تريد معرفة اسم تلك المرأة التي افترت على زوجها ورفع شكوى امام المحكمة الجزائية للجنة الوطنية ، لأن هذا الإفتراء قد يؤذي زوجها ويحرمه من موارد معيشـــته » .

http://nj180degree.com

حاولت جاهدا مرة اخرى بتر هذه المشكلة من بدايتها المضحكة فقلت : « اسمع ايها الرفيق ، لا طائل من كل هذا . الدراسة التي نحن بصددها ضعيفة جدا لدرجة ان احدا لن يقبل تزكيتها ، وبإصرار يفوق إصراري . وإذا حصل سوء تفاهم بين تلك المراة والسيد زاتيروكي ، فذلك رغم كل شيء ليس سببا للدعوة إلى اجتماع .

ــ اجابني الرجل ذو الذقن المائلة : لحسن الحظ ايها الرفيق انك لست من يقرر مناسبة اجتماعاتنا وإذا اصبحت تدعي الآن ان دراسة الرفيق زاتيروكي لا قيمة لها ، فسنعتبر ذلك ثارا . لقد قرات علينا الرفيقة زاتيروكي الرسالة التي كتبتها إلى زوجها بعد اطلاعك على دراسته .

ــ نعم ، لكنني لم اذكر في الرسالة كلمة واحدة عن قيمة تلك الدراسة .

ــ هذا صحيح . لكنك كتبت إلى الرفيق زاتيروكي بانك تود مساعدته ؛ ويبدو واضحا من قراءة الرسالة انك كنت تستحسن دراسته . والآن تقول بانها انتحال . لماذا لم تكتب له ذلك في الحال ؟ ولماذا لم تقل له ذلك بصراحة ؟

ــ قالت الشقراء : الرفيق رجل ذو وجهين » .

في تلك اللحظة تدخلت امراة مسنة ذات تجعيدة في النقاش ؛ فلامست في الحال صلب المشكلة : « نود ان تقول لنا ايها الرفيق من هي تلك المراة التي صادفها السيد زاتيروكي في منزلك ؟ » .

ادركت انه لم يكن بوسعي علنا تجريد هذه القضية من خطورتها المضحكة ، وانه لم يعد امامي إلا مخرج وحيد : خلط الأوراق وإبعاد كل هؤلاء الناس عن كلارا وتحويل انتباههم عنها ، كالحجلة التي تحول انتباه كلب الصيد عن عشها مفتدية فراخها بنفسها .

http://nj180degree.com

قلت : « هذا سؤال مزعج ، لأنني لا اتذكر اسم تلك المرأة .

ـ سألت المرأة ذات التجعيدة : كيف ؟ الا تتذكر اسم المرأة التي تعيش معها .

ـ قالت الشقراء : كانك تتعامل مع النساء بطريقة مثالية ايها الرفيق .

ـ قد يمكنني تذكره ، لكن يجب أن أفكر ، هل تعرفون في اي يوم جاء السيد زاتيروكي لمقابلتي ؟

ـ قال الرجل ذو الذقن المائلة وهو ينظر في اوراقه : كان ... لحظة من فضلك ، كان يوم ١٤ ، إذاً الأربعاء بعد الظهر .

ـ الأربعاء ١٤ ... انتظروا ... » احتضنت رأسي بين يدي وفكرت . « حسناً ، هذه المرة تذكرت . كانت هيلين » وكنت أتأكد من انهم يرهفون السمع لي .

« هيلين ... حسناً ، وايضاً ؟

ـ ايضاً ؟ للأسف لا أعرف شيئاً عنها . لم ارغب بطرح الأسئلة عليها . وإذا اردتم الصدق ، لستُ متأكداً من انها كانت تدعى هيلين . كنتُ اناديها هيلين لأن زوجها بدا لي أشقراً مثل مينيلاس . تعرفتُ عليها مساء الثلاثاء في مرقص ونجحتُ في تبادل بضعة كلمات معها حين كان زوجها مينيلاس يشرب الكونياك في الحانة . جاءت لمقابلتي في اليوم التالي وامضت فترة ما بعد الظهيرة في منزلي . اضطررت لمغادرتها قبيل المساء بسبب اجتماع في الكلية لمدة ساعتين . عندما عدت ، كانت مشمئزة وقالت لي بأن سيداً جاء واغراها . ظنت انني كنت متواطئاً معه ، فشعرت بالإهانة وباتت ترفض الإصغاء إلي . إذا ، كما ترون ، لم يتح لي المجال لمعرفة اسمها الحقيقي .

http://nj180degree.com

ـ قالت الشقراء : أيها الرفيق ، سواء أكان ما تقوله صحيحاً او غير صحيح ، يبدو لي من المحال ان يستطيع رجل مثلك تعليم الشباب . كيف اتفق أن الحياة في بلدنا لم تدفعك إلا إلى الشراب وإغراء النساء ؟ ثق بأننا سنرفع رأينا في هذه الموضوع إلى من يهمه الأمر .

ـ تدخلت المرأة ذات التجعيدة بدورها : لم يكلمنا البواب عن المدعوة هيلين ، لكنه قال لنا بأنك تستضيف منذ شهر فتاة شابة تعمل في مؤسسة للألبسة الجاهزة ودون حصولها على تصريح . لا تنسى انك مستأجر أيها الرفيق ! هل تظن بأنك تستطيع إيواء أي شخص ؟ هل تحسب منزلك ماخوراً ؟ إذا كنت لا تريد إخبارنا باسمها ، ستعرف الشرطة كيف تحصل عليه » .

١١

كانت الأرض تميد تحت قدميّ . بدأت المس بنفسي جو السخط الذي كلمني عنه الأستاذ . وبالطبع لم يستدعني أحد بعد ، لكنني كنت أسمع تلميحات من هنا وهناك ، والسيدة ماري تكشف لي بتعاطف عن بعض الأمور التي تدور في المكتب الذي يأتي الأساتذة لتناول القهوة فيه وقلما كانوا يعيرون انتباهاً لأحاديثهم . كان على المجلس أن ينعقد خلال بضعة أيام وكان يتلقى من كل صوب الآراء والتقييمات ، فأتخيل أعضاء المجلس يقرؤون تقرير لجنة الحي ، تلك الوثيقة التي لاأعرف منها سوى شيء واحد : انها سرية وليس بوسعي إبداء أية ملاحظة بشأنها .

تمر لحظات في الحياة تتطلب الانسحاب . ولا بد فيها من التخلي عن المواقع الأقل أهمية للحفاظ على المواقع الحيوية . وهكذا كنت أحسب أن موقعي الأخير هو حبيبتي . أجل ، ففي تلك الأيام القلقة بدأت أشعر فجأة أنني أحب خياطتي ، وأنني أحبها حقاً .

http://nj180degree.com

واعدتها يومئذ امام إحدى الكنائس وليس في المنزل . وهل مايزال منزلا ؟ هل يمكن ايضا ان تكون حجرة ذات جدران زجاجية منزلا ؟ حجرة يرصدها المراقبون بمنظار ؟ حجرة يترتب عليكم ان تخفوا فيها المرأة التي تحبونها كالبضاعة المهربة ؟

منزلنا إذن ، لم يعد منزلنا ، كنا نبدو دخلاء اندسوا في ارض غريبة ويتحسبون دوماً من التعرض لهجوم ، وكنا نفقد رباطة جاشنا حين ينبعث وقع خطى في الممر ، ونتوقع في كل لحظة أن يطرق شخص ما الباب ويلحاح . كانت كلارا قد عادت الى سيلا كوفيس ولم نعد نرغب بلقاء بعضنا حتى لبضعة لحظات في منزلنا ذاك الذي اصبح غريباً عنا . لذلك طلبت من صديقي الرسام إعارتي محترفه لقضاء أمسية . ويومئذ كانت المرة الأولى التي يسلمني فيها المفتاح .

التقينا إذا في الخفاء ، في حجرة فسيحة تحوي أريكة صغيرة وحيدة ولها نافذة كبيرة مائلة تتبدى منها براغ في انوار المساء ، واعترتني فجاة مشاعري القديمة عن عذوبة الحرية ، وسط مجموعة من اللوحات المسنودة على امتداد الجدران ، في هذه القذارة وهذه الفوضى اللامبالية للفنان . استويت على الأريكة وغرزت البذال في السدادة وفتحت زجاجة النبيذ . كنت أثرثر بحرية ومرح ، واستمتع بأمسية جميلة وليلة لطيفة كنا على وشك أن نمضيها .

لكن القلق الذي بارحني للتو ، أرخى بكل وطاته على كلارا .

ذكرت سابقا بانها جاءت لتقيم في منزلي بدون أدنى تردد وحتى بمنتهى العفوية . لكننا الآن وقد الفينا انفسنا منذ بضع لحظات في محترف غريب ، باتت تشعر بتعكر مزاجها ، وبما هو أكثر من تعكر المزاج . فقالت : « هذا يهينني » .

ــ سألتها : ما الذي يهينك ؟

http://nj180degree.com

ـ استعارتك للشقة .

ـ ولماذا يهينك ذلك مادمت انا استعرت الشقة ؟

ـ لأن في هذا شيء مهين .

ـ لم يكن امامنا خيار آخر .

ـ قالت : اعلم ، لكنني اصبح شبيهة بعاهرة في شقة مستعارة .

ـ يا إلهي ! لماذا تشبّهين نفسك بعاهرة لمجرد اننا في شقة مستعارة ؟ العاهرات يمارسن نشاطهن غالباً في منزل وليس في شقة مستعارة » .

كان من العبث محاولة الدحض المنطقي للسد المنيع من اللامعقول الذي جُبلت منه ، كما يقال ، الروح الانثوية . ومنذ البداية كان نقاشنا ينذر بالشؤم .

اخبرتُ كلارا بما قاله لي الأستاذ ، وسردت عليها كل ما جرى في لجنة الحي وحاولت اقناعها بأننا سنتغلب في النهاية على كل العقبات .

ظلت كلارا صامتة لبرهة ثم أكدت بأنني اتحمل مسؤولية كل شيء. « على كل حال ، هل ستستطيع إنقاذي من ورشة الألبسة الجاهزة ؟ ».

اجبتُ بأن عليها الصبر قليلاً في الوقت الحالي .

قالت كلارا : « لاحظ ، لم تكن سوى وعود وفي النهاية لن تفعل شيئاً . والآن لن اتخلص منها حتى لو وافق شخص آخر على مساعدتي، لأن ملفي سيصبح مشيناً بسبب خطئك » .

اقسمت لكلارا بشرفي انه لن ينوبها اي اذى من مشاحناتي مع السيد زاتيروكي .

http://nj180degree.com

قالت كلارا : « رغم كل ما حدث لم يتسن لي أن أعرف لماذا ترفض كتابة تعليق القراءة . لو أنك كتبته ، لركنوا إلى الهدوء في الحال .

ـ قلت : في كل الأحوال فات الأوان على ذلك يا كلارا . إذا كتبت تعليق القراءة الآن ، فسيدعون بأنني استنكر هذا العمل بدافع الثأر ، وسيصبحون أكثر هيجاناً .

ـ ولماذا يجب ان تستنكر هذا العمل ؟ اعطِ رأياً موافقاً !

ـ لا يمكنني أن افعل ذلك يا كلارا . تلك المقالة لا تطاق .

ـ وماذا بعد ذلك ؟ يلائمك تمثيل دور المدافعين عن الحقيقة ! الم يكن تزييفاً حين كتبت إلى ذلك الرجل بانه ليس لآرائك اي وزن في مجلة الفكر التشكيلي ؟ الم تكذب حين قلت له بانه حاول إغرائي ؟ الم تكذب حين تكلمت عن هيلين تلك ؟ إذا ، ما دمت كذبت كثيراً ، فماذا يمكن ان يحدث لك من الكذب مرة زيادة وإعطاء رأي موافق في مقالته ؟ هذه هي الوسيلة الوحيدة لإصلاح كل شيء .

ـ قلت : كما ترين يا كلارا ، انتِ تحسبين أن الكذوبة تنوب عن اخرى : لكنك مخطئة . يمكنني تلفيق اي شيء ، وخداع الناس ، وتدبير كل انواع الغش ، والقيام بكل انواع المزحات ، فلا اشعر بنفسي كاذباً ، تلك الأكذوبات ، إن شئتِ ان تطلقي عليها هذا الاسم ، هي أنا ، على علاتي ؛ فبتلك الأكذوبات لا استتر على شيء ، بتلك الأكذوبات اقول الحقيقة فعلاً . لكن هناك امور لا يمكنني الكذب فيها . توجد امور اعرفها في العمق ، وفهمت معناها ، واحبها . لا امزح بتلك الأمور . الكذب فيها سيحط من شأني ، ولا احتمل ذلك ، فلا تطلبيه مني ، لأنني لن اقوم به . »

ولم نتفق .

http://nj180degree.com

لكنني كنتُ أحب كلارا حقاً وكنتُ عازماً على بذل ما بوسعي لكي لا تلومني على شيء . وفي اليوم التالي كتبتُ إلى السيدة زاتيروكي رسالة اخبرتها فيها بأنني سأنتظرها الساعة الثانية من نهار الغد في مكتبي .

- ١٢ -

ملتزمة بروحها المنهجية ، طرقت السيدة زاتيروكي مكتبي في الموعد المحدد تماماً . فتحتُ لها الباب ودعوتها للدخول .

ها انذا اراها اخيراً . امرأة طويلة ، طويلة جداً ، ولها عينان زرقاوان كامدتان تجحظان من وجهها الناحل والمتطاول .

قلت لهـا « ارتاحي » فخلعت بحركات فظة معطفاً طويلاً لونـه كستنائي غامق ، مطابق لقوامها ومفصل بطريقة غريبة ، كان يذكرني بصورة المعاطف العسكرية القديمة .

لم اكن أرغب البدء بالهجوم ؛ بل أن يبادر الخصم لكشف أوراقه . عندمـا جلسـت السـيدة زاتيروكي ، حرضتها على افتتاح السجـال ببضع كلمات .

قالت بصوت خافت ودون اي اثر للعدوانية : « انت تعلم لماذا كنت ابحث عنك . ما زال زوجي يكن لك الاحترام الفائق كإنسان وكعالم . كان كل شيء مرهونا بتعليق قراءتك . وانت رفضت تحريره . لقد كرس زوجي ثلاث سنوات كاملة لهذا العمل . وعاش حياة متقشفة أكثر منك . كان معلماً وكان يجتاز ستين كيلو متراً يومياً لكي يعلم التلاميذ في الريف. وأنا التي أرغمته العام الفائت على اخذ إجازة حتى يتمكن من تكريس نفسه للعلم حصراً .

- سألت : الا يعمل السيد زاتيروكي ؟

http://nj180degree.com

ـ لا .

ـ وكيف تؤمنان سبل معيشتكما ؟

ـ إنني مضطرة حاليا لأحصل على ما يكفينا لوحدي . العلم هو شغفه . ليتك تعلم كم اجتهد . ليتك تعلم كم كتب . ظل يقول بأن على العالم الحقيقي كتابة ثلاثمائة صفحة لكي لا يحتفظ منها إلا بحوالي الثلاثين . ثم صادف تلك المرأة . صدقني ، فأنا أعرف بأنه لم يرتكب بالتأكيد شيئاً من قبيل ما اتهمته به تلك المرأة ، وأنها تثرثر بذلك أمامنا ! أعرف النساء ، لعلها تحبك ولعلك لم تكن تحبها . ربما كانت تريد إثارة غيرتك ، لكن يمكنك أن تصدقني ، ما كان زوجي ليجرؤ على ذلك أبداً ! ».

بينما كنت أصغي إلى السيدة زاتيروكي ، حدث لي فجأة أمر غريب : نسيت أنني بسبب هذه المرأة كنت على وشك أن أطرد من الكلية ، وأنه بسبب هذه المرأة اندس شبح بيني وبين كلارا ، وأنني بسببها قضيت أياماً في الغضب والقلق . باتت كل علاقة بينهما وبين الحادثة التي كنا نمثل فيها سوية دوراً مؤسفاً ما تبدو لي الآن مبهمة وسقيمة وطارئة . وأدركت فجأة بأنني لم أكن سوى واهم حين تصورت بأننا نسرج حصان مغامراتنا بأنفسنا وأننا نوجه بأنفسنا سباقه ؛ وبأن تلك المغامرات ربما ليست مغامراتنا البتة ، بل إنها مفروضة علينا تقريباً من الخارج ، وبأنها لا تخصنا إطلاقاً ؛ وبأننا لسنا مسؤولين أبداً عن مجراها الغريب؛ وأنها تجرفنا، وقد وُجهت هي نفسها من مكان ما بقوى غامضة مجهولة .

من جهة أخرى ، حين كنت أنظر في عيني السيدة زاتيروكي ، كنت أحسب أنه ليس بوسع عينيها إدراك معنى التصرفات ، وأنهما لا تنظران مطلقاً ؛ وأنهما لا تنفكان تعومان على سطح وجهها .

http://nj180degree.com

قلت بنبرة مواسية : لعلك محقة يا سيدة زايتروكي . ربما كذبت صديقتي . لكنك تعلمين حال الرجل الغيور ؛ فصدقتها وانهارت اعصابي . هذه امور تحدث لكل الناس .

ـ قالت السيدة زايتروكي متخلصة بوضوح من عبء ثقيل : اجل ، بالتاكيد اجل . ما دمت تعرف ذلك فهذا جيد . كنا نخشى أن تصدق تلك المراة . كان بمقدورها أن تدمر حياة زوجي . لا اتكلم فقط عن الوهم الذي يستولي عليه من الناحية الاخلاقية . فهذا كان يمكن احتماله ايضا . لكن زوجي ينتظر بفارغ الصبر تعليق قراءتك . اكدوا له في هيئة تحرير تلك المجلة أن الامر متوقف عليك وحدك . وزوجي واثق من أن مقالته لو نشرت ، لتم اخيرا قبوله في البحث العلمي . الآن وقد اتضح كل شيء ، هل ستحرر ذلك التعليق ؟ وهل بوسعك كتابته بسرعة؟

جاءت اخيرا لحظة ثاري وتسكين غضبي ، لكنني لم اعد اشعر في تلك اللحظة بأي غضب ، وما قلته للسيدة زايتروكي ، قلته لانه لم يعد بوسعي التهرب : « سيدة زايتروكي ، توجد صعوبة بخصوص التعليق . سأشرح لك بصراحة كيف حصل كل هذا . إنني ابغض مواجهة اي شخص بأمور مزعجة . وهذه نقطة ضعفي . فعلت كل ما بوسعي لكي لا اقابل السيد زايتروكي وكنت اعتقد انه سيفهم لماذا اتجنبه . الحقيقة أن دراسته ضعيفة وليس لها اية قيمة علمية . هل تصدقينني ؟

ـ قالت السيدة زايتروكي : هذا امر يصعب علي تصديقه . لا ، لا اصدقك .

ـ اولا هذا العمل ليس مبتكرا على الاطلاق . هل تفهمين ؟ على العالم ان يبتكر شيئا جديدا ؛ ولا يحق له أن ينسخ اشياء معروفة سابقا ، اشياء كتبها آخرون .

ـ بالطبع لم ينسخ زوجي تلك المقالة .

http://nj180degree.com

ـ يا سيدة زاتيروكي ، طبعاً قراتيها ... » وهممت ان اتابع ، لكن السيدة زاتيروكي قاطعتني .

« لا ، لم اقراها » .

فوجئت : « في هذه الحالة ، اقرئيها .

ـ قالت السيدة زاتيروكي : نظري ضعيف . لم اقرأ سطراً واحداً منذ خمس سنوات ، لكنني لست بحاجة للقراءة كي اعرف هل زوجي شريف ام لا . هذه أمور يحسها المرء ويستغني عن القراءة لأجلها ، اعرف زوجي مثلما تعرف أم طفلها ، اعرف كل شيء عنه . واعلم ان كل ما يقوم به شريف دوماً » .

اضطررت لتحمل الاسوأ . قرأت على السيدة زاتيروكي بعض المقاطع من مقالة زوجها والمقاطع المناظرة للمؤلفين المختلفين الذين اقتبس منهم السيد زاتيروكي الافكار ، وطبعاً لم يكن المقصود انتحال متعمد بل الاصح طاعة عمياء لمؤثرات تلهم السيد زاتيروكي الاحترام الصادق والمفرط . مع ذلك كان واضحاً ان اية مجلة علمية جادة لا يمكنها نشر ذلك النص .

لا ادري باية طريقة كانت السيدة زاتيروكي تهتم بشروحاتي ، وباية طريقة تتابعها وتفهمها . كانت جالسة باستكانة على كرسيها ، مذعنة وخاضعة مثل جندي يعلم بأن عليه التشبث بموقعه . تكلمت ما ينوف على النصف ساعة . ثم نهضت عن كرسيها ، وحدجتني بعيونها الكامدة ورجتني بصوت بريء ان اسامحها . لكنني كنت اعلم انها لم تفقد الثقة بزوجها . كانت توجه اللوم إلى شخص ما ، ربما إلى نفسها ، لكي لا تواجه حججي التي كانت تبدو لها غامضة وغير مفهومة . ارتدت معطفها العسكري وادركت ان تلك المراة كانت جندياً ، جندياً جسداً وروحاً ، جندياً حزيناً ووفياً ، جندياً متعباً من غزوة طويلة ، جندياً مهزوماً لكن دون عار .

http://nj180degree.com

١٣

قلت لكلارا في تأثير دالماس بعد أن اخبرتها بحديثي مع السيدة زاتيروكي : « والآن ، لم يعد يوجد شيء يدعوك للخوف » .

« اجابت كلارا بثقة فاجأتني : لا أرى ما كان يدعوني للخوف .

ـ كيف هذا ؟ فلولاك ، لما قابلت السيدة زاتيروكي ابداً !

ـ احسنت صنعاً بمقابلتها لانك سببت الكثير من الأذى لهؤلاء الناس . قال الدكتور كالوزيك بأن من العسير على رجل عاقل أن يتفهم ذلك .

ـ متى رأيت كالوزيك ؟

ـ قالت كلارا : رأيته .

ـ واخبرته بكل شيء ؟

ـ وبعد ؟ لعل ذلك سر ؟ الآن اعرف تماماً من أنت .

ـ آه ، من ؟

ـ هل تود أن اقول لك ذلك ؟

ـ إذا سمحت .

ـ إنك متعجرف تافه .

ـ هل قال لك كالوزيك هذا ؟

http://nj180degree.com

ـ لم كالوزيك ؟ هل تظن بانني لا استطيع اكتشاف ذلك لوحدي؟ هل تظنني غير قادرة على إدراك لعبتك ؟ تؤثر خداع الناس . وعدت السيد زاتيروكي بتعليق القراءة ..

ـ لم أعده ابداً بتعليق القراءة ...

ـ وانا ، وعدتني بوظيفة . استخدمتني ضد السيد زاتيروكي واستخدمت السيد زاتيروكي ضدي . لكن لطمك ، ساحصل على تلك الوظيفة رغم كل شيء .

ـ بفضل كالوزيك ؟ » كنت ارغم نفسي على ان ابدو ساخراً .

« بالتاكيد ليس بفضلك ! فانت مفضوح في كل مكان ، ولا يمكنك ان تعلم إلى اي مدى .

ـ وانت ، هل تعلمين إلى اي مدى ؟

ـ اجل ، لن يجدد عقد عملك وسيمكنك اعتبار نفسك محظوظا إن قبلوك كمستخدم في مخزن ريفي . لكن عليك ان تفهم بان كل ذلك حدث بسبب خطئك . إذا امكنني ان اقدم لك نصيحة من اجل المستقبل ، الاجدر بك ان تصبح صادقا وان لا تكذب ، لانه ليس بوسع امراة ان تكن الاحترام لرجل يكذب » .

نهضت وصافحتني (واضح انها المرة الاخيرة) ، ثم استدارت وخرجت .

كنت بحاجة لبرهة كي افهم ان حكايتي (رغم الصمت الجليدي الذي كان يحدق بي) ليست من النوع التراجيدي ، بل الاصح الهزلي.

وهذا ما جعلني اشعر بنوع من السلوى .

* * *

http://nj180degree.com

To: www.al-mostafa.com

http://nj180degree.com

تفاحة الشهوة الأزلية الذهبية

http://nj180degree.com

http://nj180degree.com

مارتـان :

مارتان قادر على اشياء لا اقدر عليها . انه يتعرض لاية امراة في اي مكان . ولا بد لي من الاعتراف بانني استفدت كثيراً من موهبته منذ ان تعرفت عليه (وقد حصل ذلك منذ زمن طويل) ، لانني اهوى النساء بقدر ما يهواهن لكنني لا املك جراته المتهورة . وبالمقابل ، ارتكب مارتان خطأ بتحويل التعرض إلى ممارسة براعة اصبحت غاية في حد ذاتها . بحيث صار ينشبّهُ نفسه غالباً ، وإحساس بشيء من المرارة يعتريه ، بمهاجم شهم يرسل الكرات الاكيدة لزميله الذي يحرز اهدافاً سهلة ويحصد المجد بمجهود متواضع .

كنت انتظره عصر يوم الاثنين بعد خروجي من عملي في مقهى ساحة سان ــ فانسيسلا ، وقد استغرقت في قراءة كتاب اللغي سميك يتناول الثقافة الاتروبية(*) القديمة . احتاجت مكتبة الجامعة إلى عدة اشهر لكي تزودني بهذا المؤلف الذي استعارته لاجلي من المانيا ، وبما انني كنت قد تلقيته للتو يومئذ ، فقد حملته معي بحرص بالغ وكنت مسروراً في قرارة نفسي لان مارتان تأخر ، مما اتاح لي تصفح الكتاب المشوق على طاولة المقهى .

لا يمكنني التفكير في تلك الثقافات القديمة الغابرة دون الاحساس بنوع من الحنين . إحساس بالحنين وكذلك بالحسد عند التفكير بالانسياب العذب لتاريخ ذلك الزمن . فالثقافة المصرية القديمة تشغل عدة آلاف من السنين ، واستمرت العصور اليونانية القديمة ما يقارب

(*) الاتروري : من اتروريا التي كانت تقع قديماً غربي ايطاليا .

http://nj180degree.com

الالف عام . ومن هذه الناحية ، تشبه الحياة الإنسانية التاريخ : تتوارى في البداية بهدوء رتيب ، ثم تتسارع شيئاً فشيئاً وأكثر فأكثر . لقد تجاوز مارتان الأربعين منذ شهرين .

المغامرة تبدأ :

هو الذي قطع تأملي . ظهر فجأة على الباب المزجج لمشرب الجمعة ، وتقدم نحوي وهو يوجه تكشيرات وايماءات معبرة إلى فتاة شابة جالسة إلى جانب طاولة وأمامها فنجان قهوة . جلس بقربي دون ان تبارحها عيناه وسألني : « ما قولك فيها ؟ » .

شعرت بالخجل . في الحقيقة ، كنت مستغرقاً بعمق في كتابي بحيث لم يتسن لي ملاحظة الفتاة الشابة ، وكان لا بد من الاعتراف بانها جميلة . في اللحظة نفسها ، عدلت جلستها ونادت النادل ذي ربطة العنق السوداء : كانت تريد دفع الحساب .

امرني مارتان : « ادفع انت ايضاً ! » .

كنا نعتقد أننا سنضطر للركض خلفها في الشارع ، لكن الحظ واتانا بتوقفها ايضاً في حجرة الملابس . كانت قد أودعت فيها حقيبة ، فذهبت المستخدمة للبحث في مكان ما قبل أن تضعها أمامها على المنضدة . ثم دفعت الفتاة بضع قطع نقدية من فئة العشر سنتيمات إلى المستخدمة وحينئذ ، انتزع مارتان كتابي الالماني السميك من يدي .

قال بمنتهى العفوية : « لنضعه هنا ! واودع الكتاب بعناية في حقيبة الآنسة التي بدت مندهشة لكنها لا تدري ماذا تقول .

ـ ليس من السهل الاحتفاظ بهذا الشيء في اليد » قال مارتان : وعاتبني على سوء سلوكي ، لان الفتاة كانت تستعد لحمل الحقيبة بنفسها .

http://nj180degree.com

كانت ممرضة في مشفى ريفي . وقد مرت مروراً عابراً في براغ وكان يترتب عليها الإسراع لتستقل حافلتها . حسبنا اننا رافقناها إلى موقف الترام حتى نعلم المطلوب بشأنها ونتفق على المجيء إلى بـ... السبت التالي ، لكي نلتقي تلك الانسلة الفاتنة التي لا بد أن لديها زميلة جميلة بالتأكيد ، وهو ما لم يغفل مارتان التنويه عنه بفصاحة .

كان الترام يقترب ببطء . ناولت الحقيبة إلى الفتاة التي تظاهرت بسحب الكتاب منها ، لكن مارتان منعها من ذلك بحركة نبيلة ، فلتعده لنا يوم السبت التالي وتتصفحه من الآن حتى ذلك الحين ... كانت تضحك ضحكة مرتبكة والترام يذهب بها ونحن نلوح لها .

لم يكن لي حيلة في الأمر . فالكتاب الذي انتظرته طويلاً اصبح فجأة بعيداً على نحو خطر ، وحين تأملت الأمور بروية ، وجدت ذلك مزعجاً ، لكنني لا ادري اية حماقة كانت تحملني بخفة على جناحيها المبسوطتين . اخذ مارتان ، دون أن يضيع دقيقة واحدة ، يفتش عن أعذار لزوجته من اجل بعد ظهر يوم السبت والليل الممتد من السبت إلى الاحد (لان الأمر على هذا المنوال : مارتان متزوج ، لديه زوجة شابة والأسوأ من ذلك انه يحبها ، والأسوأ ايضاً انها يخاف منها ، والأسوأ اكثر ايضاً انه يخاف عليهـا) .

استطلاع موفق :

استعرت إذاً سيارة فيات جميلة من اجل حملتنا ، وجئت يوم السبت في الساعة الثانية لكي آخذ مارتان من أمام منزله ، كان ينتظرني فانطلقنا في الحال . كان شهر تموز ، والطقس في غاية الحرارة .

كنا نود الوصول إلى ب ... في أسرع وقت ممكن ، لكننا تين لمحنا في القرى شابتين بلباس السباحة وشعرهما مبلل ، أوقفت السيارة . لم تكن البركة بعيدة خلف المنازل . كنت بحاجة للتبرد . وقد وافق مارتان .

http://nj180degree.com

ارتدينا سراويل السباحة وغطسنا . وصلت بسرعة إلى الضفة المقابلة ، اما مارتان فاكتفى بالتبلل والحمحمة ثم خرج . حين عدت من جديد الى الضفة بعد ان اجتزت البركة في الاتجاه المعاكس ، القيته مستغرقا في تامل عميق . كانت مجموعة من الاطفال تتمارك بصخب على الجرف ، وصبية القرية يلعبون الكرة ابعد منهم بقليل ، اما مارتان فيحافظ على عينيه مسمرتين على جسد فتاة شابة واقفة على بعد حوالي خمسة عشر مترا منا وتولي ظهرها إلينا . كانت تتمعن ماء البركة في سكون شبه تام .

« قال مارتان : انظر .

ـ انني انظر .

ـ وما قولك فيها ؟

ـ ماذا تريدني ان اقول فيها ؟

ـ الا تعرف ما يجب ان تقوله فيها ؟

ـ لا بد من التريث حتى تلتفت .

ـ لسنا بحاجة للتريث حتى تلتفت . ما تبديه من هذه الجهة يكفيني تماما .

ـ موافق ! لكن ليس لدينا وقت .

ـ رد مارتان بسرعة : الاستطلاع ، الاستطلاع ! » وتوجه نحو ضبي يرتدي سروال رياضة . « من فضلك ايها الغلام ، الا تعرف ماذا تدعى تلك الفتاة ؟ » واشار إلى الفتاة التي ما تزال محافظة على وضعيتها نفسها ، مستسلمة لبلادة غريبة .

« تلك ؟

http://nj180degree.com

ـ اجـل ، تلـك .

ـ قال الصبي : ليست من هنا » .

عندئذ خاطب مارتان صبية في الثانية عشر من عمرها كانت تتشمس بقربنا .

ـ « يا صغيرتي ، ألا تعرفين من هي تلك الفتاة ، تلك الواقفة على طـرف المـاء ؟ » .

نهضت الصغيرة بانقياد : « تلك ، هناك ؟

ـ نعـم

ـ إنها ماري .

ـ ماري ماذا ؟

ـ ماري باتيك ، من بوزدراني ... » .

كانت الفتاة ما تزال واقفة على طرف البركة وظهرها متجه نحونا . ثم بدأت تنحني لالتقاط قبعتها ، وعندما انتصبت ووضعتها على شعرها كان مارتان قد اصبح بجانبي : « انها تدعى ماري باتيك ، من بوزدراني يمكننا الإنطلاق » .

كان في منتهى الهدوء والوداعة ولم يكن يفكر ظاهريا إلا بمواصلة الرحلة .

شيء من النظـرية :

ذلك ما يسميه مارتان الاستطلاع . استخلص من تجربته الكبيرة ان الاصعب ، بالنسبة لاي شخص لديه في هذا الميدان طلبات عددية

http://nj180degree.com

كثيرة ، ليس إغراء فتاة ، بل التعرف على عدد كاف من الفتيات اللواتي لم يتعرضن للاغراء بعد .

يزعم إذاً بانه يترتب علينا دائماً ، في كل مكان وفي كل ظرف ، البدء باستطلاع منظم للنساء ، او بعبارة اخرى ، أن ندون في مفكرتنا او في ذاكرتنا أسماء النساء اللواتي اعجبتنا واللواتي قد نستطيع يوماً التعرض لهن .

التعرض هو درجة اعلى من النشاط ويعني أن يتصل المرء مع هذه او تلك ، ويتعرف عليها ويمهد للوصول اليها . اولئك الذين يؤثرون الإلتفات إلى الماضي بتبجح ، يتمسكون بعدد النساء المغزوات ، اما اولئك الذين يتطلعون إلى الامام ، نحو المستقبل ، فعليهم في البداية تهيئة عدد كاف من النساء المستطلعات والمتعرض لهن .

لم يعد يوجد بعد التعرض إلا درجة واحدة واخيرة من النشاط ، ويهمني ان اشير إرضاءً لمارتان إلى ان اولئك الذين لا يطمحون إلا إلى تلك الدرجة النهائية هم الرجال البائسون والدونيون الذين يشبهون لاعبي كرة القدم الريفيين الذين نشاهدهم ينقضون برؤوس مطرقة نحو مرمى الخصم ، متناسين انه لا يكفي لتسجيل هدف (وعدة اهداف) الرغبة الجامحة بقذف الكرة ، بل لا بد في البداية من اللعب بإتقان وتنظيم على ارض الملعب .

« سألت مارتان حين كنا نتابع طريقنا من جديد : هل تعتقد انك ستحظى يوماً بفرصة الذهاب لرؤيتها في بوزدراني ؟

ـ اجاب : لا يمكن التنبؤ بذلك ابداً .

ـ علقت بدوري : على كل حال، فاتحة حسنة للنهار بالنسبة لنا» **اللعبة والضرورة** .

http://nj180degree.com

وصلنا الى مشفى ب ... بمزاج مبتهج . كانت الساعة الثالثة والنصف تقريباً . هاتفنا ممرضتنا من حجرة البواب . نزلت بعد قليل بقبعة الممرضة والرداء الأبيض واكتشفت أنها احمرت خجلاً ، وهو ما بدا لي بشيراً ساراً .

بدأ مارتان الكلام بسرعة وأخبرتنا الفتاة بأن نوبتها تنتهي في الساعة السابعة . رجتنا انتظارها في تلك الساعة أمام المشفى .

« سأل مارتان : هل كلمت زميلتك ؟ فأومأت الفتاة إيجاباً .

ــ أجل .. ستكون اثنتين .

ــ قال مارتان : ممتاز ، لكن لا يمكننا أن نفاجيء صديقي بالأمر الواقع .

ــ قالت الفتاة : حسناً ، يمكن الذهاب لرؤيتها . إنها تعمل في قسم الجراحة » .

اجتزنا بتمهل فناء المشفى وسألت بخجل : « أما يزال كتابي معك ؟»

ردت الممرضة إيجاباً بإيماءة من رأسها : ما تزال تحتفظ به ، وهنا في المشفى . شعرت بارتياح عبء ثقيل عن كاهلي وألححت عليها كي تذهب أولاً لإحضار الكتاب .

وطبعاً رأى مارتان أنه لا يليق أن أفضل بشكل علني كتاباً على المرأة التي أوشكت على التعرف إليها ، ولكن ذلك كان رغماً عني . لا بد لي من الاعتراف بأنني تألمت كثيراً خلال الأيام التي وجد فيها كتاب الثقافة الأتروورية بعيداً عن متناول يدي . وقد احتجت إلى جهد جبار من الإرادة لكي أحتمل ذلك دون تذمر ، لأنني لم أكن أريد في حال من الأحوال إفساد اللعبة . هذه القيمة التي تعلمت احترامها منذ فترة صباي ويمكنني أن أخضع لها في كل مصالحي ورغباتي الشخصية .

http://nj180degree.com

بينما كنت أستعيد كتابي بشغف ، كان مارتان يتابع جداله مع المرضة وقد اوغل بعيداً لدرجة ان الفتاة وعدته باستمارة شاليه زميل لها قرب بركة اوتي لقضاء الامسية . كنا نحن الثلاثة في غاية الرضى فتوجهنا نحو البناء الصغير الاخضر الذي يحوي قسم الجراحة .

في تلك اللحظة ، كانت ممرضة تجتاز الفناء بصحبة طبيب في الاتجــاه المعاكس . كان ذلك الطبيب طويلاً ناحـلاً ومثيراً للسخرية باذنيه المشنفتين ، وهو ما كان يسحرني . لكزتني ممرضتنا بمرفقها فاخذت اضحك . عندما ابتعدا التفت مارتان نحوي : « إنك محظوظ بها يا عزيزي . فانت لا تستحق فتاة بمثل هذا البهاء ! »

لم اتجرأ على الاجابة بانني لم انظر إلا إلى الطويل الناحل ولذلك ابديت رأيا متملقا . ومن جهة اخرى ، لم يكن هذا بتاتا علامة رياء من جانبي . فانا اثق بذوق مارتان اكثر من ذوقي الشخصي ، لانني اعلم أن ذوقه مدعوم بالاهتمام اكثر بكثير من اهتمامي . احبُ في كل امر النظام والموضوعية ، بما في ذلك امور الحب ، واُقدر الخبير اكثر من الهاوي .

لعل البعض سيتصور انه من الرياء ، من جانب الرجل المطلق الذي اكونه والذي يروي بدقة إحدى مغامراته (غير الاستثنائية حتماً) ، أن ينعت نفسه بالهاوي . ومع ذلك : انا هاوٍ . ويمكن القول انني امثل ما يعيشه مارتان ، اخال احيانا ان كل حياتي المتعددة الزوجات ليست إلا تقليداً للرجال الآخرين ؛ ولا انكر شعوري ببعض المتعة في هذا التقليد . لكن ليس بوسعي أن اتمالك نفسي عن التفكير بانه يوجد في هذه المتعة شيء ما قسري تماما واحتياطي ويمكن العدول عنه ، يَسِمُ زيارة معرض اللوحات او اكتشاف مشاهد طبيعيــة خارقة ولا يخضع إطلاقا لتلك الضرورة الحتمية التي اتكهن بها وراء الحياة الماجنة لمارتان . ما احترمه في مارتان هو تلك الضرورة الحتمية . فحين يتفوه بحكم على امرأة ، احسب ان الطبيعة مشخصة والضرورة نفسها تنطقان بفمه .

http://nj180degree.com

شعاع الحريق :

حين خرجنا من المشفى ، نبهني مارتان بشدة إلى أن الأمور تسير على ما يرام بالنسبة لنا . ثم أضاف : « لا بد من العمل بسرعة هذا المساء . أريد العودة في الساعة التاسعة » .

أذهلني ذلك : « في التاسعة ؟ لكن هذا يعني ان علينا المغادرة من هنا في الساعة الثامنة ! كنا في غنى عن المجيء في مثل هذه الحالة ! كنت أظن أن الليل بطوله ما زال امامنا !

ـ ولماذا تريد أن نضيع وقتنا ؟

ـ لا معنى لمجيئنا إلى هنا من أجل ساعة . ماذا تريد أن تفعل من الساعة السابعة حتى الثامنة ؟

ـ كل شيء . كما سمعت ، وجدت شاليه . في هذه الحالة ، ستسير الأمور بيسر . كل شيء متوقف عليك ، سيترتب عليك أن تبدي مقداراً كافياً من التصميم .

ـ وهل تسمح بإخباري لماذا عليك العودة في الساعة التاسعة ؟

ـ وعدت جورجيت بذلك . نحن نلعب الورق مساء كل سبت قبل خلودنا إلى النوم .

ـ تذمرت : يا إلهي !

ـ ما زالت جورجيت متكدرة من عملها في الأمس وتريدني أن أحرمها من هذه الفرحة المتواضعة يوم السبت ؟ أنت تعلم بأنها أفضل امرأة تعرفت عليها في حياتي » .

واستدرك : « بالاضافة لذلك ، سيسرك أن يظل الليل بطوله أمامك في براغ » .

http://nj180degree.com

ادركت ان من العبث النقاش . لا يمكن لشيء ان يخفف من المخاوف التي يشعر بها مارتان في سبيل تهدئة خاطر زوجته ، ولا يمكن لشيء ان يزعزع ثقته بالإمكانات اللانهائية الماجنة في كل ساعة وكل دقيقة .

« قال لي مارتان : تعال . ما يزال امامنا ثلاث سلعات من الآن حتى الساعة السابعة . لن نتعطل ! »

الخديعة :

دلفنا إلى ممر حديقة عامة واسع يستخدمها سكان المدينة للتنزه . تفحصنا العديد من ازواج الفتيات اللواتي يعبرن بقربنا او يجلسن على المقاعد ، لكننا كنا مستائين من صفاتهن .

تعرّض مارتان رغم ذلك لاثنتين منهن وافتتح معهن حديثاً ، وواعدهن ، لكنني كنت اعلم ان ذلك ليس جدياً . فهذا ما يسميه التعرض التدريبي ، وهو رياضة يكرس نفسه لها مخافة ان يفقدمهارته .

خرجنا من الحديقة العامة منزعجين وتابعنا سيرنا في الشوارع المستغرقة في سأم وفراغ المدينة الريفية الصغيرة .

« قلت لمارتان : تعال نشرب شيئا . إنني عطشان » .

عثرنا على بناء تعلوه لوحة منقوشة « مقهى » . دخلناه ، لكنه لم يكن إلا مقهى خدمة ذاتية ، عبارة عن صالة مبلطة ، باردة وقلية الحفاوة ، فتوجهنا نحو منضدة البائعة لكي نشتري من سيدة متجهمة شرابا ، وضعناه بعد ذلك على طاولة ملطخة بالصلصة ، كان لا بد لها ان تحثنا على الخروج باقصى سرعة .

قال مارتان : لا تعر اهتماما لذلك ، فللقذارة وظيفة إيجابية في عالمنا . لا احد يريد التريث مطلقاً ، فحالما يلفي نفسه في مكان ما ،

http://nj180degree.com

يتعجل الخروج منه ، وهذا ما يهب الحياة إيقاعاً مستحباً . لكننا لن ننساق لذلك . يمكننا أن نقص على بعضنا أموراً كثيرة ، محميين بواسطة القنارة الهادئة لهذه الخمارة » شرب الليمون وسألني : « هل تعرضت آنفاً لطالبتك في الطب ؟

ـ قلت : أجل بالتأكيد .

ـ وكيف هي ؟ صفها لي ؟ »

وصفت له طالبة الطب ، دون أن يصعب عليّ ذلك ، مع أنه لا توجد طالبة طب . أجل ، مع أن هذا يعطي عني صورة سلبية بدون شك ، لكن الأمر حصل هكذا : اختلقتها .

يمكنكم أن تثقوا بكلامي : لم أتصرف بدوافع شريرة لكي أتباهى أمام مارتان أو أخدعه . اختلقت طالبة الطب تلك لسبب بسيط هو أنني لم أعد أستطيع مقاومة إلحاح مارتان .

مارتان شخص لجوج جداً فيما يخص نشاطي . فهو واثق من أنني أقابل كل يوم نساء جديدات . يراني بخلاف ما أنا عليه ولو أنني قلت له بصراحة أنني لم أضاجع أو حتى المس امرأة جديدة طوال الأسبوع ، لاعتبرني منافقاً .

إذا كنت قد ألفيت نفسي قبل بضعة أيام مكرهاً على أن أقص عليه بأنني استطلعت طالبة طب . بدا راضياً وشجعني على المضي للتعرض لها . تأكد يومئذ من تقدمي .

« وهي من صنف من ؟ إنها من صنف ... » .

أغمض عينيه باحثاً في الغبش عن نقطة مقارنة ؛ ثم تذكر صديقة مشتركة : « ... إنها من صنف سيلفي ؟

ـ قلت : إنها أفضل بكثير » .

http://nj180degree.com

دهش مارتان : « أنت تمزح ... »

ـ إنها من صنف زوجتك جورجيت » .

المعيار الأول بالنسبة لمارتان هو زوجته . كان مارتان في غاية الرضى من تقريري واسترسل في حلم يقظة .

تعرّض موفق :

ثم دخلت فتاة ترتدي بنطالاً مخملياً إلى الصالة . تقدمت نحو منضدة البائعة وانتظرت شرابها . ثم توقفت عند طاولة مجاورة لطاولتنا، وشربت دون أن تجلس .

التفت مارتان نحوها وقال : « يا آنسة ، نحن لسنا من هنا ونود أن نسألك عن أمر » .

ابتسمت الفتاة . كانت في غاية الجمال .

« إننا نختنق ولا ندري ماذا نفعل ... »

ـ اذهبا للاستحمام !

ـ وهو كذلك . لكنا لا نعرف مكان الحمام في هذه المدينة .

ـ لا يوجد حمام .

ـ كيف هذا ؟

ـ يوجد حوض سباحة لكنه فارغ منذ شهر .

ـ والنهر ؟

ـ إنه ينظف الآن .

http://nj180degree.com

ـ إذاً ، أين يمكن الاستحمام ؟

ـ لا يوجد إلا بركة أوتي ، لكنها تبعد حوالي ٧ كيلو مترات .

ـ لا أهمية لذلك ، معنا سيارة ويكفي أن تقودينا .

ـ قلتُ : ستكونين ملاحتنا .

ـ قال مارتان : أو الأصح ، دليلتنا .

ـ قلت : نجمتنا » .

وافقت الفتاة في النهاية على مرافقتنا بعد تردد ؛ لكن كان ما يزال امامها جولة ، وكانت مضطرة لإحضار مايو السباحة ؛ لذلك كنا سنلتقيها في المكان نفسه بعد ساعة بالضبط .

كنا مسرورين . اخذنا ننظر إليها تبتعد ، وهي تهز وركيها بلطف وتؤرجح قرطيها السوداوين .

« قال مارتان : كما ترى ، الحياة قصيرة ويجب الاستفادة من كل دقيقة » .

مديح الصداقة :

عدنا إلى الحديقة العامة لكي نعاين ازواج الفتيات الجالسات على المقاعد ، إلا انه حين تكون إحداهما جميلة ، وهو ما كان يصادف احياناً ، لا تكون جارتها كذلك مطلقاً .

« قلتُ لمارتان : إنه قانون الطبيعة الغريب . المراة القبيحة تأمل بالاستفادة من نضارة صديقتها الرائعة الجمال ، وهذه تأمل أن تتوهج ببريق خلفيته القبح ؛ ينجم عن ذلك بالنسبة لنا أن صداقتنا خضعت

http://nj180degree.com

لاختبارات متتالية . وإنني فخور جداً لأننا لم نترك مجالا للصدفة أو المنافسة للتحكم فينا . ما يزال الاختيار فيما بيننا يتم بلباقة . كل واحد يقترح على الآخر الفتاة الأجمل ، ونشبه في هذا سيدين محافظين لا يمكنهما الدخول إلى حجرة لأنه لا يسعهما القبول بأن يسبق أحدهما الآخـر .

ـ قال مارتان بتأثر : اجل . إنك صديق حقيقي . تعال لنجلس قليلا . اشعر بالم في ساقي . »

وذهبنا للجلوس ، فاسترخينا باستمتاع إلى الوراء مع الشمس الساطعة ، وتركنا العالم يتابع جريانه حولنا لبضعة دقائق دون ان نهتـم بـه .

الصبية ذات الثوب الابيض :

انتصب مارتان فجاة (وقد دفعه إلى ذلك بالتأكيد احساس غامض) ونظره محدق في ممر منعزل من المنتزه حيث تتقدم فتاة مرتدية ثوباً ابيض . وحتى عن بعد ، حين لم تكن ابعاد جسـدها وملامح وجهها تميز بعد بوضوح ، كان يكتشف فيها سحراً خاصاً ، عصياً على الفهم ؛ نوعاً من الصفاء أو الرقة .

حين مرت امامنا ، اكتشفنا انها صبية . لم تكن طفلة ولا شابة ، وذلك ما اثارنا إلى ابعد حد في الحال . نهض مارتان بوثبة : « يا آنسة ، انا المخرج فورمان . وكما تعرفين ، مخرج سينمائي » .

مد يده إلى الصبية فصافحتها وعلائم الذهول بادية على عينيها .

التفت مارتان نحوي وقال : « اقدم لك مصوري .

ـ اسمي اندريسيك » قلت وانا اصافحها بدوري .

انحنت احتراماً .

http://nj180degree.com

« نحن محتاران يا آنسة . ابحث هنا عن مشاهد خارجية من اجل فيلمي القادم . كان يجب على معلوني الذي يعرف المنطقة جيداً أن ينتظرنا هنا ، لكنه لم يأت . نتساءل من أين نبدأ زيارتنا للمدينة وضواحيها . ثم تابع مارتان مازحاً : يدرس مصوري المشكلة في هذا الكتاب الالماني السميك ، لكنه لن يجد فيه شيئاً مع الأسف » .

ازعجني هذا التلميح إلى الكتاب الذي حرمت منه طيلة الاسبوع. فانتقلت إلى الهجوم على مخرجي « من المؤسف انك لم تهتم كثيراً بهذا الكتاب . فلو كرست وقتك بشكل جدي للاعداد ولم تترك كل العمل التوثيقي لمصورك ، فربما كانت افلامك أقل سطحية ولاحتوت على عدد اقل من الاخطاء » ثم قدمت اعتذاراتي إلى الصبية : « المعذرة يا آنسة . لم نكن نود إزعاجك بجدالاتنا المهنية ؛ في الحقيقة ، نحن نعد فيلماً تاريخياً عن الثقافة الاثرورية في بوهيميا .

ـ قالت وهي تنحني : أجل

ـ إنه كتاب مشوق ، انظري !»

ناولت الكتاب إلى الصبية التي أخذته برهبة دينية تقريباً وراحت تتصفحه بشرود تلبية لدعوتي كما بدا .

« قلت ايضاً : اظن ان قصر بشاسيك قريب من هنا ، كان مركز الاثروريين التشيكيين ، لكن كيف نذهب اليه ؟

ـ قالت الصبية : إنه قريب جداً . وانتعشت فجأة لأن معرفتها بطريق بشاسيك منحتها اخيراً موقعاً مهماً في هذا الحوار الغامض قليلاً.

ـ سأل مارتان متصنعاً الارتياح الكبير : كيف ؟ انت تعرفين ذلك القصر ؟

ـ قالت : بالتأكيد . إنه على بعد ساعة من هنا .

http://nj180degree.com

فخ الإيمان الأعمى :

مضت عشر دقائق ، ثم ربع ساعة ولم تعد الصبية .

اخذ مارتان يطمئنني : « لا تقلق ، إنني متأكد من انها ستاتي . كان مشهدنا معقولا جداً وكادت الصغيرة تطير فرحاً » .

كنت موافقاً على هذا الراي ، بحيث لبثنا ننتظر ، وكل دقيقة تؤجج رغبتنا بتلك المراهقة التي ما زالت طفلة . وعلى هذا المنوال ، لم نلاحظ موعدنا مع الفتاة ذات البنطال المخملي . ولم يكن يخطر ببالنا حتى النهوض لأن صورة الفتاة ذات الثوب الأبيض شغفتنا .

وكان الزمن يمضي .

« قلت اخيراً : اسمع يا مارتان ، اعتقد انها لن تاتي .

ـ كيف تفسر ذلك ؟ لقد آمنت بنا كما تؤمن بالله .

ـ اجل ، وهذا بالضبط سبب بلائنا . لقد آمنت بنا أكثر مما ينبغي .

ـ وإذاً ؟ لعلك كنت تريدها أن لا تؤمن بنا ؟

ـ لكان ذلك افضل بالتاكيد . فالايمان الملتهب هو اسوأ الحلفاء» . افتتحت نقاشاً وقد انسقت إلى هذه الفكرة : « عندما يعتنق الإنسان امراً بحرفيته ، فان الايمان يدفع ذلك الأمر الى المحال . والمؤيدون المخلصون لسياسة ما لا يأخذون ابداً على محمل الجد سفسطات تلك السياسة ، بل الغايات العملية التي تتخفى وراء تلك السفسطات فقط . لان اليافطات السياسية والسفسطات لم تعد لكي يؤمنوا بها ؛ لكنها تستخدم كحجة متفق عليها ضمناً ؛ أما الساذجون الذين ياخذونها على

http://nj180degree.com

قال مارتان : مشيا ؟

ــ قالت : أجل ، مشيا .

ــ قلت : لكن معنا سيارة .

ــ قال مارتان : كوني ملاحتنا » لكنني فضلت عدم متابعة طقسنا التقليدي في التلاعب بالألفاظ ، لان لدي تشخيصا نفسيا أصح مما عند مارتان ، فشعرت أن المزحات السهلة قد تتهددنا بالأذى وان الجدية التامة قد تكون أفضل أوراقنا الرابحة .

« قلت : لا نريد إضاعة وقتك يا آنسة ، لكنك إذا تكرمت بتكريس ساعة او ساعتين لنا وارشادنا إلى الاماكن اللاتي نرغب برؤيتها في المنطقة ، فسنكون لك من الشاكرين .

ــ قالت الصبية منحنية من جديد : طبعا . أود ذلك ، لكن ... »
في تلك اللحظة فقط ، تبينا أنها كانت تمسك في يدها كيس مشتريات يحتوي خستين ... « يجب ان أحمل السلطة إلى أمي ، لكن المكان قريب جداً من هنا وسأعود في الحال .

ــ قلت : بالتأكيد ، يجب ان تحملي السلطة الى أمك . إننا ننتظرك هنا .

قالت : اجل ، يلزمني على الاكثر عشر دقائق » .

انحنت من جديد وابتعدت مسرعة .

« قال مارتان : تبا لك !

ــ إنها من الطراز الرفيع ، أليس كذلك ؟

ــ اوافقك . إنني مستعد للتضحية بالمرضتين في سبيلها » .

http://nj180degree.com

محمل الجد فسيكتشفون فيها عاجلاً او آجلاً التناقضات ، وسيبدؤون في التمرد وسينتهون على نحو مخز إلى ارتداء زي الهراطقة والمرتدين . كلا ، لا يحمل الايمان الأعمى اية فائدة ؛ ليس فقط في المذاهب الدينية والسياسية ؛ بل ايضاً في مذهبنا الذي استخدمناه لاستمالة تلك الصبية .

ـ قال مارتان : لم اعد افهمك .

ـ مع ان كلامي واضح جداً : لم نكن في نظر تلك الفتاة إلا سيدين جديين ، فارادت ان تتصرف بلباقة ، مثل طفلة مهذبة تتخلى عن مقعدها في الترام للمسنين .

ـ إذا كان الأمر كذلك ، لماذا لم تواصل لباقتها حتى النهاية ؟

ـ بالضبط لأنها آمنت بنا كثيراً . حملت الخضار إلى امها وقصت عليها ما جرى بحماسة : الفيلم التاريخي ، الاتروريون في بوهيميا ... والملما ... »

قاطعني مارتان : « اجل ... اعرف البقية » ثم نهض .

الخيانة :

اخذت الشمس تنحدر ببطء على اسطحة المدينة؛ كانت الريح تهب برفق ونحن حزينان . ورغم ذلك ذهبنا إلى مقهى الخدمة الذاتية لنرى فيما إذا كانت الفتاة ذات البنطال المخملي ما تزال تنتظرنا فيه . وطبعاً لم تكن هناك . كانت الساعة السادسة والنصف . نزلنا ثانية إلى السيارة . اصبحنا نشعر فجأة باننا رجلان منفيان عن مدينة غريبة واقفراحها ولم يبق امامنا سوى البحث عن ملجأ في سيارتنا التي تبدو متمتعة بامتياز الحصانة هنا .

http://nj180degree.com

هتف مارتان عندما صرنا في السيارة : « حسناً ! لا تتخذ سيماء الجدّاد ! الأهم أمامنا » .

كنت ارغب بإجابته أننا لم نخصص الا ساعة من اجل الأهم : بسبب زوجته جورجيت ولعبة الورق ، لكنني فضلت السكوت .

« أضاف مارتان : من جهة اخرى ، كان النهار حافلا . استطلاع الصغيرة من بوزدراني ، التعرض للفتاة ذات البنطال المخملي ، كل شيء في المدينة جاهز بالنسبة لنا ، ولم يعد أمامنا إلا العودة مرة اخرى » .

لم اجب بشيء . اجل . كان الإستطلاع والتعرض ناجحين على نحو باهر . كان كل ذلك يسير على ما يرام . لكنني فكرت فجاة أن مارتان لم يتوصل إلى شيء آخر منذ عام ، باستثناء هذه الاستطلاعات والتعرضات .

رحت انظر إليه . كانت عيناه تشعان كالمعتاد ببريقهما المتلهف دوماً ، فشعرت في تلك اللحظة إلى اي مدى كان مارتان عزيزاً علي ومقدار حبي للراية التي سار خلفها طيلة حياته : راية الملاحقة الدائمة للنساء .

كان الزمن يمضي فقال مارتان : « الساعة السابعة » .

اوقفنا السيارة على بعد عشرة امتار تقريباً من سور المشفى لكي يتسنى لي مراقبة المدخل في المرآة . كنت ما ازال افكر بتلك الراية . شعرت أن الغاية من تلك الملاحقة للنساء لا تستهدف مع مرور السنين النساء بقدر ما تستهدف الملاحقة في حد ذاتها . بشرط أن يكون المقصود ملاحقة عابثة سلفاً ، يمكن ملاحقة عدد غير محدود من النساء كل يوم وجعل الملاحقة على هذا النحو ملاحقة مطلقة . اجل ، كان مارتان يصير في موقف الملاحقة المطلقة .

ما زلنا ننتظر منذ خمس دقائق ولم تأت الفتاتان .

http://nj180degree.com

لم يكن ذلك يقلقني البتة . ليس لمجيئهما أو عدم مجيئهما أية أهمية . لأنه حتى لو جاءتا ، فهل بوسعنا في ساعة واحدة أن نصطحبهما إلى شاليه بعيدة ، ونكسب ثقتهما ، ونضاجعهما لكي نستأذن بأدب في الساعة الثامنة وننطلق ؟ كلا ، فمنذ اللحظة التي قرر فيها مارتان أن كل شيء يجب أن ينتهي في الساعة الثامنة ، حول هذه المغامرة (كما في مرات كثيرة !) إلى لعبة وهمية .

ما زلنا ننتظر منذ عشر دقائق . لم يظهر أحد على مدخل المشفى .

بدأ مارتان يغتاظ وكان يصيح تقريباً : « سأمهلهما خمس دقائق أيضاً ، ولن أنتظر أكثر من ذلك » .

كنت أفكر أيضاً بأن مارتان لم يعد شاباً . إنه يحب زوجته بإخلاص . ويعيش ، إن صح القول ، حياة زوجية في غاية الرصانة . هذه هي الحقيقة . وفوق هذه الحقيقة ، على مستوى الوهم الساذج والمؤثر ، يستمر شباب مارتان ، الشباب القلق ، مضطرباً ومسرفاً ، ومقتصراً على لعبة بسيطة لم تفلح بعد في تجاوز مضمار ملعبه لكي تبلغ الحياة وتغلو واقعاً . ولأن مارتان هو الفارس الأعمى للضرورة ، فإنه يحول مغامراته إلى لعبة بريئة ، وحتى دون أن ينتبه لذلك ، ويتابعها بكل جوارحه .

كنت أقول لنفسي : حسناً ! إن مارتان سجين وهمه ، لكن أنا ؟ لماذا أساعده في هذه اللعبة المضحكة ؟ أنا من يعلم أن كل ذلك ليس إلا خديعة الست أيضاً مضحكاً أكثر من مارتان ؟ لماذا التظاهر بترقب مغامرة حب في حين أنني أعلم تماماً بأن ما يمكنني انتظاره على الأكثر هو إضاعة ساعة ، فاشلة سلفاً ، مع امرأتين مجهولتين ولا مباليتين ؟

عندئذ شاهدت في المرآة الشابتين تعبران سور المشفى . كنت أميز رغم تلك المسافة بريق المسحوق والحمرة على الوجهين ، وكانتا ترتديان

http://nj180degree.com

بأناقة صارخة وبالتأكيد ارتبط بتأخرهن بلباسهن المتكلف جداً . أخذتا تتلفتان حولهما وتتجهان إلى سيارتنا .

« قلت متظاهراً بعدم رؤية الفتاتين : وأسفاها يا مارتان . انقضت الربع ساعة . لننطلق » وضغطت على دواسة البنزين .

الندم :

كنا على وشك الخروج من مدينة ب . . . ، نعبر المنازل الاخيرة ، ونتوغل في مشهد الحقول والأشجار ، مع الشمس الغاربة فوق المرتفعات.

كنا ساكتين .

كنت أفكر في يهوذا الاسخريوطي الذي قال كاتب خفيف الدم انه خان المسيح لانه كان يؤمن به ايماناً لا نهائياً ، وانه لم يطق صبراً على انتظار المعجزة التي سيظهر المسيح بها قدرته الالهية لكل اليهود ، لذلك أسلمه إلى جلاديه حتى يرغمه على الاسراع . خانه لأنه كان يريد تعجيل ساعة انتصاره .

كنت أحدث نفسي : للأسف ، حين خنت مارتان ، فلأنني على العكس من ذلك ، انقطعت عن الايمان به (وبقدرته الالهية في سباقه إلى الفتيات) ، إنني هجين دنيء من يهوذا الاسخريوطي وتوما الذي يدعى الشكاك .

كنت أشعر أن ذنبي يزيد من تعاطفي مع مارتان وان راية الملاحقة الدائمة للنساء (تلك الراية التي كنا نسمع خفقانها باستمرار فوق راسينا) تؤثر فيَّ لدرجة البكاء . وبدأت ألوم نفسي على تهوري .

هل سأفلح حقاً ذات يوم بالتخلي أنا أيضاً عن تلك التصرفات التي تعني الشباب ؟ ولماذا بوسعي ان افعل غير تقليدها ، ومحاولة العثور في حياتي الحكيمة على أرض صغيرة مُسَيَّجَة لأجل هذا النشاط الأخرق؟ وما أهمية أن يكون كل ذلك لعبة مائلة ؟ ما اهمية ان اعرف ذلك ؟ وهل سأقلع عن تمثيل الدور لأنه بكل بساطة عابث ؟

http://nj180degree.com

تفاحة الشهوة الأزلية الذهبية :

كان مارتان بجانبي على مقعده وكان غيظه يتلاشى بهدوء .

« قال لي : اسمع، هل حقا صاحبتك طالبة الطب من صنف رفيع؟

ـ اخبرتك بذلك . من صنف زوجتك جورجيت » .

طرح مارتان علي اسئلة اخرى . اضطررت ايضا ان اصف له طالبة الطب .

ثم قال : « ربما يمكنك ان تمررها لي فيما بعد ؟ » .

اردت ان اكون مقنعا : « اخشى ان يكون هذا صعبا . قد يزعجها ذلك لانك صديقي . لديها مبادىء ...

ـ لديها مبادىء ... » ردد مارتان بحزن ، ورأيت بوضوح انه يأسف لذلك .

لم اكن أريد إيلامه .

« قلت : إذا تظاهرت بعدم معرفتك . ربما يمكنك اعتبار نفسك شخصا آخر

ـ فكرة جيدة ! مثلا ، اعتبرني فورمان ، مثل اليوم .

ـ لا يهمها المخرجون . انها تفضل الرياضيين .

ـ قال مارتان : لم لا ؟ كل شيء ممكن » وغدونا من جديد في غمرة النقاش . كان الافق يتضح رويداً رويداً ، ويوشك ان يتمايل لناظرينا في المساء الذي بدا يهبط ، مثل تفاحة جميلة يانعة ومشعة .

اسمحوا لي ان اسمي تلك التفاحة ، بشيء من الفصاحة ، تفاحة الشهوة الازلية الذهبية .

http://nj180degree.com

لعبة الأوتو ـ ستوب *

* الأوتو ـ ستوب : استيقاف سيارة عابرة على الطرق العامة للإنتقال بها مجانا .

http://nj180degree.com

http://nj180degree.com

١

انزلق مؤشر عداد البنزين فجأة نحو الصفر فقال السائق الشاب بأن ما استهلكه هذه السيارة أمر غير محتمل . وعلقت الفتاة (البالغة من العمر اثنين وعشرين عاماً تقريباً) : « المهم أن لا نتعطل بسبب الوقود مثل المرة الماضية » وذكرته بأماكن عدة حدث فيها ذلك . أجابها الشاب بأنه ليس قلقاً من ذلك ، لأن كل ما يحصل له برفقتها له سحر للمغامرة . لم تكن الفتاة موافقة على هذا الرأي : فعندما كانا يتعطلان بسبب الوقود في أرض مكشوفة ، فإن المغامرة إذا صدقناه تكون دوماً لها ولها وحدها، لأنه كان يختبىء بينما كان يجب عليها استخدام وإساءة استخدام مفاتنها الأنثوية : تنادي سيارة وتجعلها تقلها إلى أقرب محطة وقود ، ثم توقف سيارة أخرى والعود بالصفيحة . علق الشاب بأن السائقين الذين كانوا ينقلونها بجوارهم كانوا سمجين ولا بد حتى تتكلم عن مهمتها كأنها سخرة أجابت الفتاة (بغنج لكح) أنهم كانوا أحياناً جذابين جداً لكن قلما كان بوسعها الإفادة من ذلك ، لأنها تكون مرتبكة بالصفيحة وسضطرة لمغادرتهم دون أن يتاح لهما الوقت للقيام بشيء . قال : « غولة » . أجابته بأنه إذا كان يوجد غول فإنه هو . والله أعلم كم من الفتيات كن يستوقفنه على الطريق عندما كان يمضي وحيداً ! وبينما كان يقود ، احتضن كتفيها ومنحها قبلة على جبهتها . كان يعلم أنها تحبه وتغار عليه . والغيرة ليست سمة الطبع الأنيس جداً ، لكن إذا تجنب المرء المغالاة فيها (إذا ترافقت بالتواضع) فإن فيها رغم كل مساوئها شيئاً ما مؤثر . كان يفكر بذلك على كل حال . ولأنه لم يكن يبلغ من العمر الا ثمانية وعشرين عاماً ، فقد كان يظن نفسه كهلاً ويتصور أنه يعرف عن النساء كل ما يمكن لرجل أن يعرفه عنهن . وما كان يحبه في الفتاة الجالسة بجانبه هو بالضبط ماوجده حتى الآن نادراً في النساء : البراءة .

http://nj180degree.com

اصبحت الإبرة على الصفر حين شاهد على يمين الطريق لوحة تشير إلى وجود محطة وقود على بعد خمسمائة متر . وما كادت تعلن عن شعورها بالإرتياح ، حتى اضاء الغماز اليساري وصعد فوق المنبسط الترابي امام مضخات الوقود . لكن سيارة ضخمة ذات خزان كبير كانت واقفة امام المضخات وتملؤها بواسطة انبوب غليظ . قال : « يا للصدفة السيئة » ونزل . هتف لعامل المضخة : هل سيستغرق ذلك طويلاً ؟ ـ دقيقة ـ دقيقة ، هذا معروف » كان يريد الجلوس ثانية في السيارة ، لكنه تبين ان الفتاة نزلت من الباب الآخر . قالت له : « اعذرني . ـ فسألها قصداً لكي يحرجها : اين تذهبين ؟ » مضى عام على تعارفهما ، لكنها كانت ماتزال تصل إلى درجة الإحمرار خجلا امامه وكان يحب كثيراً لحظات حيائها ؛ لانها تميزها اولاً عن النساء اللواتي إليهن قبلها ولانه يدرك ثانياً قانون الزوال الكلي الذي يجعل حياء صديقته ثميناً بالنسبة له .

٢

كانت الفتاة تكره واجب التوسل إليه للتوقف امام غابة اشجار صغيرة (غالباً ماكان يسير لعدة ساعات بلا انقطاع) . كانت تغضب دائماً من الدهشة المتكلفة التي يسألها بها عن السبب . كانت تعلم ان حياءها مثير للسخرية وقديم الطراز . تأكدت من ذلك مراراً في عملها ، حيث يسخر الناس منها ويثيرونها عمداً بسبب حشمتها . ودوماً كانت تحذر سلفاً من فكرة انها ستحمر . كانت ترغب بأن تشعر بالراحة في جسدها، دون هم او قلق ، مثلما يتاح ذلك لمعظم الفتيات اللواتي تحاذيهن . بل انها ابتكرت ، من اجل استعمالها الشخصي ، اسلوباً مزيداً للاقناع الذاتي : كانت تردد أن كل كائن انساني يتلقى عند ولادته جسداً من بين الملايين من الأجساد الأخرى المعدة للأخذ ، كما لو انه يمنح منزلاً شبيها بملايين المنازل الأخرى في مجمع سكني كبير ، وان الجسد إذاً شيء طاريء ولا شخصي ، وهو ليس سوى سلعة مستعارة ومصنعة . هذا ما كانت تردده بكل التنويعات المحتملة ، لكن دون ان تتمكن من ترسيخ هذا الأسلوب بالإحساس في ذهنها . كانت ثنائية الروح والجسد غريبة عنها . كانت تتماهى كثيراً في جسدها كي لا تشعرها هذه الثنائية بالقلق .

http://nj180degree.com

كانت تشعر بهذا القلق حتى إلى جانب الشاب ؛ كانت تعرفه منذ عام وتشعر بالسعادة لأنه بالتأكيد لم يميز مطلقاً بين جسدها وروحها لدرجة أنه كان بوسعها العيش معه جسداً وروحاً . كانت السعادة تراودها من غياب هذه الثنائية ، لكن ليس ثمة مسافة كبيرة بين السعادة والشك وكانت مفعمة بالشكوك . فعلى سبيل المثال كانت تقول لنفسها غالباً أنه توجد نساء أخريات أكثر إغراء (وهن دون قلق) وأن صديقها الذي يعرف هذا النموذج من المرأة ولا يخفي ذلك منها سيتركها ذات يوم من أجل إحداهن . (طبعاً كان الشاب يعلن بأنه تعرف على ما يكفي منهن هكذا من أجل أيامه القادمة ، لكنها كانت تعرف أنه أكثر شباباً مما كان يظن هو نفسه) كانت تريده لنفسها كلياً وتريد نفسها له كلياً ، لكنها كلما سعت أكثر لإعطائه كل شيء ، كلما تزايد إحساسها بأنها تضن عليه بما يمنحه حب ظاهري وسطحي وبما يمنحه الغزل . وكانت تلوم نفسها لعدم قدرتها على الجمع بين الجدية والخفة .

لكنها يومئذ لم تتألم ولم تفكر بشيء من هذا القبيل . كان يوم عطلتها الأول (عطلة الخمسة عشر يوماً التي كانت على مدار العام نقطة التقاء رغباتها) والسماء زرقاء (كانت تتساءل على مدار العام فيما إذا كانت السماء زرقاء حقاً) وكان برفقتها . بعد أن سألها « أين أنت ذاهبة ؟ » احمرت وانطلقت راكضة دون أن تنبث بكلمة . التفت حول محطة الوقود التي توجد على حافة الطريق في أرض منبسطة ومكشوفة ، وكانت بداية غابة على بعد مائة متر (في الاتجاه الذي يترتب عليهما ارتياده بعد ذلك) فانطلقت في هذا الاتجاه واختفت وراء دغلة مستسلمة لشعور بالراحة . (وحتى الفرح الذي يسببه حضور المحبوب ، لا بد للمرء أن يكون وحيداً لكي يشعر بفيضه) .

ثم خرجت من الغابة وعادت إلى الطريق ؛ ومن المكان الذي ألفت نفسها فيه ، راحت تشاهد المحطة ؛ بينما بدأت سيارة الصهريج الضخمة

http://nj180degree.com

تغادر الآن . تقدمت السيارة نحو العمود الاحمر لمضخة الوقود . أخذت تتمشى على امتداد الطريق ؛ وبالكاد تلفتت من حين لآخر كي ترى فيما إذا وصل . شاهدته اخيراً ؛ فتوقفت واخذت تشير له ، كما تشير مستوقفة لسيارة عابرة . فرملت السيارة ووقفت بمحاذاتها تماماً . مال الشاب نحو زجاج النافذة وأنزله ، ثم ابتسم وسأل : « اين انت ذاهبة يا آنسة ؟ واستعلمت الفتاة بدورها بابتسامة دلال : ــ هل انت ذاهب إلى بيستريكا ؟ فقال وهو يفتح الباب : اصعدي ، ارجوك » فصعدت وانطلقت السيارة .

٣

كان الشاب يسر دائماً لرؤيتها مبتهجة ؛ وهو ما كان يحدث نادراً : كان عملها شاقاً (جو مقيت ، ساعات عمل إضافية كثيرة بدون تعويض) وفوق ذلك ام مريضة في المنزل ؛ وبسبب إرهاقها في اغلب الاحيان ، كانت تفقد هدوءها وينقصها الإطمئنان وترزح بيسر تحت وطأة الخوف والقلق. كان يقابل إذاً كل دلالة فرح من جهتها بالاهتمام اللطيف للأخ البكر . ابتسم لها وقال : « إنني محظوظ اليوم . اقود منذ خمس سنوات ولم انقل بجانبي مطلقاً مستوقفة بمثل هذا الجمال » .

كانت الفتاة تتلقى بامتنان اقل مديح من صديقها ؛ ولكي تحتفظ بشيء من دفء ذلك ، قالت :

« إنك تتقن الكذب .

ــ هل ابدو كاذباً ؟

ــ قالت : يبدو انك تحب الكذب على النساء » وتخلل كلامها بدون علمها شيء من قلقها القديم ، لانها كانت تعتقد حقاً بانه يروق لصديقها الكذب على النساء .

http://nj180degree.com

كان يغضب عادة من نوبات غيرة صديقته ، لكن تيسر له يومئذ أن لا يعيرها اهتماماً لأن هذه العبارة لم تكن موجهة إليه بل إلى سائق مجهول . اكتفى بطرح سؤال تافه : « هل يزعجك هذا ؟

ـ قالت له : لو كنت صديقتك لأزعجني هذا » وكان هذا درساً اخلاقياً لطيفاً من أجل الشاب ؛ لكن نهاية العبارة لم تكن موجهة إلا للسائق الغريب : « هذا لا يزعجني ما دمت لا اعرفك » .

ـ تغفر المرأة دوماً بيسر لغريب أكثر من صديقها (وكان هذا درساً اخلاقياً لطيفاً يوجهه بدوره إلى الفتاة) « إذاً يوسعنا التفاهم ما دمنا غريبين أحدنا عن الآخر » .

تظاهرت بعدم إدراك الفارق التعليمي المضمر في هذه الملاحظة وقررت الا تحادث بعد إلا السائق الغريب . « وبماذا يفيدنا هذا ما دمنا سنفترق بعد بضع دقائق ؟

ـ سألها : لماذا ؟

ـ انت تعلم جيداً انني سانزل في بيستريكا .

ـ وإذا نزلت معك ؟ »

عند هذه الكلمات ، رفعت بصرها إلى الشاب وتأكدت انه غدا تماماً مثلما كانت تتصوره في ساعات غيرتها الأكثر إيلاماً ؛ وأصبحت تخشى من هذا الدلال الذي يحادثها به (هي المستوقفة المجهولة) والذي يجعله مغرياً جداً . اجابت إذاً بوقاحة مثيرة :

« اتساءل عما ستفعل بي ؟

ـ قال بلطف : لن احتاج لكثير من التفكير كي اعرف ما سافعله بفتاة في مثل هذا الجمال » وهذه المرة ايضاً كانت الفتاة أكثر من شخصية المستوقفة .

http://nj180degree.com

كانت هذه الكلمات اللطيفة بالنسبة لها بمثابة ضبطها له متلبساً بالجريمة ، وكاعتراف منتزع بخدعة بارعة ؛ فأحست ان شعوراً مفاجئاً وخاطفاً بالحقد يستولي عليها وقالت : « إنك تتوهم ! »

راح يراقبها : صار وجه الفتاة العنيد متشنجاً ؛ فشعر حيالها بشفقة غريبة وتمنى أن يعثر ثانية على نظرتها الملوفة والأنيسة (التي كان يقول عنها بأنها بسيطة وطفولية) ؛ مال نحوها وضم كتفيها وتفوه اسمها برقة راغباً إلغاء اللعبة .

لكنها تخلصت منه وقالت : إنك تتسرع قليلاً ! »

ـ قال مبتعداً عنها : المعذرة يا آنسة » ثم ركز انتباهه على الطريق دون أن ينبث بكلمة .

٤

تخلت الفتاة عن هذه الغيرة بالسرعة التي خضعت لها فيها . كان لديها ما يكفي من العقل السليم لكي تعلم أن كل ذلك ليس سوى لعبة ؛ واخذت تشعر بنفسها مثيرة للسخرية قليلاً لانها ابعدت صديقها عنها في غمرة الغيرة ، ولم تكن ترغب أن يلاحظ ذلك . كانت تتمتع لحسن الحظ بمقدرة خارقة على تغيير اتجاه تصرفاتها بالتالي ، وقررت بأنها لم تبعده بسبب الغيظ ، لكن وحسب كي تستمر اللعبة التي كان عدم الاكتراث بها يناسب تماماً أول يوم من العطلة . .

إذاً اصبحت من جديد المستوقفة التي ابعدت لتوها السائق الجريء جداً ، ولكن لكي توخر الغزو فقط وتمنحه نكهة أكثر . التفتت نحوه بخفة وقالت بصوت ملاطف : « لم اكن اريد إيلامك يا سيدي

ـ قال : اعذريني ، لن المسك ثانية » .

http://nj180degree.com

كان يحقد عليها لأنها لم تفهمه ولأنها رفضت أن تغدو هي نفسها حين كان يرغب بذلك ؛ وبما أنها أصبحت مصممة على الاحتفاظ بقناعها، صب غضبه ثانية على المستوقفة المجهولة التي كانت تمثلها ، حينذاك ، اكتشف فجأة شخصية دوره : تخلى عن ملاطفاته التي كانت وسيلة ملتوية لإسعاد صديقته ، وأخذ يمثل دور الرجل الذي يشدد في علاقاته بالنساء على المظاهر الرجولية العنيفة : الإرادة والوقاحة والثقة .

كان هذا الدور مناقضاً تماماً للاهتمام المجنون الذي كان يشعر به حيال الفتاة . صحيح انه اظهر لباقة أقل مع النساء قبل أن يتعرف عليها ، لكن لم يكن فيه حتى ذلك الحين شيء من الرجل القاسي والشيطاني ، لأنه لم يكن يتميز بقوة إرادته ولا بغياب هواجسه . مع ذلك ، إذا لم يكن يشبه هذا النوع من الرجل ، فقد رغب فيما مضى بمشابهته .

إنها بالتأكيد رغبة ساذجة قليلاً ، لكن ماذا يفعل بها : الرغبات الصبيانية تفلت من كل شراك النفس الراشدة وتقاومها أحياناً حتى بلوغ الشيخوخة النائية . وتنتهز هذه الرغبة الصبيانية الفرصة لكي تتجسد في الدور الذي يعرض عليها .

كان المدى الساخر للشاب يوافق الفتاة : كان يحررها من نفسها . لأنها كانت هي نفسها الغيرة في البداية . وحالما كف صديقها عن إظهار مواهبه كفاو لكي لا يبدي إلا وجهه الحازم ، هدأت غيرتها . كان يمكنها تناسي نفسها والانغماس في دورها .

دورها ؟ اي دور ؟ دور مستمد من الأدب الرديء . كانت قد أوقفت السيارة ، ولم يكن هذا لكي تذهب إلى اي مكان ، بل من أجل إغواء الرجل الجالس خلف المقود ؛ فلم تكن المستوقفة إلا غاوية وضيعة

http://nj180degree.com

تحسن استخدام مفاتنها على نحو رائع . اندست الفتاة في جلد هـذه الشخصية الروائية بيسر فاجأها هي نفسها .

هكذا كانا متجاورين : سائق ومستوقفة ، كلاهما مجهولان .

•

وأكثر ما كان يأسف الشاب لعدم وجوده في الحياة ، هو اللامبالاة . كانت طريق حياته مرسومة بدقة صارمة: كان عمله يستغرق أكثر من ثماني ساعات يوميـاً ؛ ويقضي بقيـة نهاره في السأم الإلزامي للإجتماعـات والدراسة في المنزل ؛ وكان يشبع من خلال نظرات زملائه الكثيرين حتى الوقت التافه من حياته الخاصة التي لم يواظب على اخفائها في أي وقت والتي اصبحت مراراً موضوع ثرثرات واجتماعات علنية ، لم يكن حتى أسبوعا العطلة ذاتهما يزودانه بأي شعور بالخلاص أو المغامرة ، كان هنا ايضاً يسود الشبح الباهت للتخطيط الدقيق ، وبسبب قلة المساكن المخصصة لقضاء الاجازات ، اضطر لأن يحجز قبل ستة اشهر حجرة في التاترا ، وقد احتاج من أجل ذلك إلى توصية من اللجنة النقابية للمشروع الذي يعمل فيه ، اللجنة التي لم تكن روحها المواظبة تتوانى للحظة عن متابعة تصرفاته وحركاته .

انتهى إلى الإقرار بذلك كله ، لكن كان يعتريه أحياناً وهم رهيب لطريق تلاحقه عليها أنظار الجميع ، دون أن يستطيع التنحي عنها مطلقاً . انبثقت هذه الرؤية في هذه اللحظة بالذات ، وفي انقطاع غريب ، اختلطت عليه الطريق المتخيلة بالطريق الحقيقية التي يسير عليها ، فقاده هذا التداعي الغريب والقصير للأفكار إلى شذوذ مفاجيء .

« إلى أين قلت أنك ذاهبة ؟

— إلى بيستريكا .

http://nj180degree.com

ـ وماذا ستفعلين هناك ؟

ـ لدي موعد .

ـ مع مـن ؟

ـ مع سيد .

كانت السيارة تصل بالضبط إلى مفترق طريق فسيح ، أبطأ الرجل سرعته ليتبين لافتات الارشاد ، ثم اتجه الى اليمين .

« ما الذي سيحدث إن لم تذهبي إلى موعدك ؟

ـ ستكون مسؤوليتك ، وسيترتب عليك الاهتمام بي .

ـ ألم تلاحظي انني سلكت طريق نوفي زامكي ؟

ـ حقا ؟ لقد فقدت رشدك !

ـ قال : لا تخشي شيئا ! سأهتم بك » .

واكتسبت اللعبة في الحال صفة جديدة . لم تكن السيارة تبعد عن الهدف المتخيل وحسب ـ بيستريكا ـ بل عن الهدف الحقيقي ايضا الذي كانت قد سلكت من اجله الطريق في الصباح نفسه : جبال التاترا والحجرة المحجوزة . اصبح الوجود الممثل يتعدى على الوجود الحقيقي . وصار الشاب يبتعد في آن معا عن نفسه وعن الطريق الصارمة التي لم يحد عنها ابدا من قبل .

اندهشت : « لكنك قلت لي بأنك ذاهب إلى التاترا ؟

ـ انا اذهب إلى المكان الذي يحلو لي يا آنسة . إنني رجـل حر وافعل ما اشاء وما يعجبني » .

http://nj180degree.com

٦

كان الليل قد بدأ يحل حين وصلا إلى نوفي زامكي .

لم يكن الشاب قد ارتادها من قبل ، واحتاج إلى فترة مديدة للإستدلال . توقف مراراً لكي يسأل المارة عن مكان الفندق . كانت الشوارع محفرة ، واستغرقا ما ينوف على الربع ساعة للوصول إلى الفندق بعد عدة دورات وانعطافات مع انه قريب (كما قالت إرشادات المارة) . لم يكن الفندق جذاباً ، ولكنه كان الوحيد في المدينة وكان الشاب متعباً من المسير . قال : « انتظريني هنا » وغادر السيارة .

اصبح ثانية هو نفسه ، بعد مغادرته . كان يزعجه أن يلقي نفسه على حين غرة في مكان غير متوقع تماماً ، خصوصاً وأن أحداً لم يرغمه عليه وأنه هو نفسه لم يكن يريد ذلك . وكان يلوم نفسه على مبالغته ، ثم عزم على مداراة قلقه : ستنتظر الحجرة في التاترا إلى اليوم التالي ، وأي سوء يوجد في الاحتفال بهذا اليوم الأول من الإجازة بشيء مما هو غير متوقع ؟

اجتاز قاعة الطعام العابقة بالدخان والمزدحمة والصاخبة وسأل عن مكتب الاستقبال . اشاروا له إلى آخر الردهة عند اسفل الدرج ، حيث تصدرت شقراء تحت لوحة مغطاة بالمفاتيح ، وحصل بصعوبة على الغرفة الشاغرة الاخيرة .

حين أصبحت الفتاة ايضاً وحيدة تخلت عن دورها . لكنها لم تكن غاضبة من تغيير خط السير . كانت من الاخلاص لصديقها بحيث لم تكن تضع موضع الشك شيئاً مما كان يفعله ، وكانت تهبه بثقة ساعات حياتها . ثم تخيلت أن فتيات أخريات ممن صادفهن خلال اسفاره انتظرنه في السيارة كما تنتظره فيها الآن . والغريب في الأمر ان هذه الفكرة لم تكن تؤذيها ، أخذت تبتسم ، كان يبدو لها جميلاً أن تغدو هذه المرة تلك الغريبة ، تلك الغريبة غير المسؤولة والوقحة ، وواحدة من هؤلاء

http://nj180degree.com

اللواتي كانت تغار منهن كثيراً ، كانت تظن أنها بذلك تسحب البساط من تحت أقدامهن ، بعد أن وجدت الوسيلة للإستيلاء على أسلحتهن ، وتهب صديقها أخيراً ما لم تكن قد عرفت بعد أن تعطيه اياه : الطيش واللامبالاة وعدم الإحتشام وكانت تشعر بإرتياح خاص لفكرة أنه كان بوسعها وحدها أن تكون كل النساء ، وبوسعها هكذا (وحدها) الإستئثار بكل اهتمام حبيبها وشغفه الكلي بها .

فتح الشاب الباب وأدخل الفتاة إلى صالة المطعم . عثر على الطاولة الوحيدة الشاغرة في زاوية وسط الصخب والقذارة والدخان .

٧

قالت الفتاة بنبرة تحد : « سأرى الآن كيف ستهتم بي .

ـ هل ستتناولين مشروباً فاتحاً للشهية ؟

قلما كانت الفتاة ميالة للكحول ، كانت تشرب قليلا من النبيذ وتؤثر البورتو . لكنها اجابت هذه المرة بتصميم : فودكا .

ـ قال : ممتاز اتمنى الا تثملي .

ـ قالت : ولماذا ؟

لم يجب ونادى النادل ، طلب قدحي فودكا وشريحتي لحم . ثم احضر النادل بعد لحظة القدحين ووضعهما امامهما .

رفع قدحه وقال : في صحتك !

ـ أليس بوسعك ايجاد شيء اكثر طرافة ؟

كان يوجد شيء في لعبة الفتاة قد بدأ يغيظه ، الآن وقد اصبحا وجهاً لوجه ، أدرك أنها اذا كانت تظهر له على أنها فتاة أخرى فليس

http://nj180degree.com

هنا فقط بسبب « كلماتها » ، لكن لانها تغيرت تماما في حركاتها وفي ايمائيتها ، ولانها كانت تشبه بدقة مؤسفة ذلك النموذج من المراة الذي خبره جيداً والذي كان يشعره بإشمئزاز طفيف .

بدل إذاً نخبه (وهو يمسك قدحه بيده الممدودة) : « حسناً ، لا اشرب في صحتك بل في صحة صنفك الذي يجمع عيوب الإنسان باسمى صفات الحيوان .

ـ سالت : عندما تتكلم عن صنفي ، هل تعني جميع النساء ؟

ـ لا ، فقط اللواتي يشبهنك .

ـ على اية حال ، لا اجد مقارنة المراة بالحيوان ظريفة جداً .

رد وهو مايزال يمسك القدح بيده : لن اشرب اذاً في صحة اشباهك بل في صحة روحك ، فهل انت موافقة ؟ في صحة روحك التي تتقد حين تهبط من الراس إلى البطن والتي تخمد حين تصعد ثانية من البطن إلى الراس » .

رفعت قدحها : « موافقة ، في صحة روحي التي تهبط إلى بطني

ـ قال : ايضا تعديل طفيف ، لنشرب بالاصح في صحة بطنك الذي تهبط اليه روحك .

ـ قالت : في صحة بطني » وبدا على بطنها (حين اشار اليه بإسمه) انه يستجيب للنداء ، صارت تشعر بكل ميليمتر من بشرته .

ثم احضر النادل شريحتي لحم . طلبا قدحي فودكا مرة ثانية وماء غازيا (شربا هذه المرة في صحة نهدي الفتاة) واستمر الحديث بلهجة عابثة على نحو غريب . أخذ يفتاظ اكثر فاكثر لرؤيته إلى اي مدى غدت

http://nj180degree.com

صديقته تحسن السلوك كامرأة طائشة ، فراح يقول لنفسه : ما دامت تعرف جيدا كيف تصير هذه الشخصية ، فلانها هي شخصيتها حقا ، في الحقيقة لم تكن روح سواها المتدفقة من مكان ما هي التي تتسلل إلى تحت جلدها ، بل كانت روحها نفسها التي تجسدها هكذا ، او على الاقل جزء منها كانت تحافظ عليه عادة مسجونا ، لكن التذرع باللعبة جعله يفلت من قفصه ، فقد كانت بالتاكيد تظن انها تتنكر وهي تمثل هذه اللعبة ، لكن الم يكن الامر على العكس تماما ؟ الم تكن هذه اللعبة هي التي تعيدها إلى نفسها ؟ والتي تحررها ؟ لا ، فامامه لم تكن توجد امراة اخرى في جسد صديقته ، بل كانت صديقته تماما ، هي نفسها ولا واحدة سواها . اخذ ينظر إليها بنفور متزايد .

لكن ذلك لم يكن نفوراً فقط . فكلما بدت له غريبة عقلياً اكثر كلما صار يشتهيها جسدياً اكثر ، فغرابة الروح قرّدت جسدها كإمراة ، وبالاحرى ، هذه الغرابة جعلت أخيراً من هذا الجسد جسدا كما لو أن هذا الجسد لم يكن موجودا بالنسبة له حتى ذلك الحين الا في ضباب التعاطف والوجد والاهتمام والحب والانفعال ، كما لو كان ضائعا في هذا الضباب (أجل ، كما لو كان الجسد ضائعا !) وكان الشاب يحسب انه يرى جسد صديقته لأول مرة .

بعد قدح الفودكا الثالث الممزوج بالمياه الغازية ، نهضت وقالت بابتسامة دلال : « اعذرني

ـ هل يمكنني ان اسالك اين انت ذاهبة يا آنسة ؟

ـ لابول ، بعد إذنك » وانسلت بين الطاولات نحو الستارة المخملية آخر المطعم .

٨

كانت الفتاة مسرورة لانها تركته كالمذهول من هذه الكلمة ـ غير المؤذية طبعا ـ لكن التي لم يكن قد سمعها تتفوه بها أبدا ، فلم يكن

http://nj180degree.com

شيء في رأيها يعبر عن شخصية المرأة التي كانت تجسدها افضل من التفخيم المنصب بدلال على هذه الكلمة ، اجل ؛ اصبحت مسرورة وبحالة ممتازة ، فاللعبة صارت تسحرها وتزودها بأحاسيس جديدة تماما : على سبيل المثال الاحساس بلا مبالاة غير مسؤولة .

شعرت فجاة بنفسها مرتاحة تماما ، هي التي كانت تخشى اللحظة الآتية . كانت حياة المرأة الاخرى هذه التي الفت نفسها مستغرقة فيها بغتة ، حياة بلا حياء وبلا تحديدات سلوكية ، بلا ماضٍ ولا مستقبل وبلا التزام ؛ كانت حياة حرة على نحو استثنائي . وبعد ان اصبحت المستوقفة ، غدت قادرة على كل شيء ؛ كان كل شيء مسموحا لها ؛ كل قول وكل فعل وكل شعور .

لاحظت وهي تجتاز القاعة بان الناس كانوا يراقبونها من كل الطاولات ، وهذا ايضا كان إحساسا جديدا لم تكن تعرفه : اللذة الفاجرة التي كان جسدها يزودها بها . وحتى الآن لم تتمكن إطلاقا من التحرر تماما من المراهقة ذات الاربعة عشر عاما التي تخجل من نهديها وتشعر بإحساس البذاءة المقيت لفكرة انهما سيبرزان على جسدها ويصبحان مرئيين . ومع انها كانت فخورة بكونها جميلة وذات قد رشيق ، فقد كان الحياء يصحح هذا الزهو مباشرة : كانت تشعر كثيرا بان الجمال الانثوي يؤثر اولا بقدرته على الاثارة الجنسية وكان هذا بالنسبة لها شيئا مقيتا ؛ وكانت تتمنى ان لا يتوجه إلى جسدها إلا الرجل الذي تحبه ؛ وعندما كان الرجال ينظرون إلى صدرها في الشارع ، كان يبدو لها بان تلك النظرات تدنس شيئا من حميميتها الاكثر سرية التي لم تكن تخص سواها وسوى حبيبها . لكنها غدت الآن المستوقفة ، امراة بدون مستقبل ، فقد تحررت من سلاسل حبها الرقيقة وبدات تدرك جسدها بقوة ؛ وكان هذا الجسد يثيرها لا سيما وان النظرات التي كانت تراقبها كانت غريبة جدا عنها » .

كانت تمر قرب الطاولة الاخيرة حين سالها بالفرنسية رجل لمل بعض الشيء اراد ، بالتاكيد ، التميز بمعرفته للناس : « بكم يا آنسة ؟ » .

http://nj180degree.com

فهمت الفتاة ، فأخذت تحدب جلدها وتعيش بشدة كل حركة من حركات وركيها ؛ ثم اختفت وراء الستارة .

— ٩ —

إنها لعبة عجيبة. كانت الغرابة تأتي على سبيل المثال من أن الشاب ولو كان قد تطبع تماما بطبع السائق المجهول ، فانه ظل مصرا على رؤية صديقته في المستوقفة . وهذا بالضبط ما كان مرهقا ؛ إذ كان يرى صديقته منهمكة في إغراء مجهول ، وكان سيء الحظ لحضوره هذا المشهد ، ولرؤيته عن كثب ما كانت تبديه وما كانت تقوله حين كانت تخونه (حين ستخونه) ؛ كان له الشرف المفارق بتقديم نفسه طعما لخيانتها .

الأسوأ انه كان يعبدها أكثر مما كان يحبها ؛ وكان يقول لنفسه دائما بأن الفتاة ليس لها حقيقة إلا في حدود الوفاء والطهارة ، وأنها لم تكن بكل بساطة موجودة بعد هذه الحدود ، وأنها ستكف عن أن تكون هي نفسها بعد هذه الحدود كما يكف الماء عن أن يكون ماء بعد درجة الغليان . وعندما صار يشاهدها تخترق هذه الحدود المرعبة برشاقة طبيعية ، راح يشعر بالغضب يستولي عليه .

عادت من المغاسل وتذمرت قائلة : « قال رجل لي : بكم يا آنسة ؟

— لا تندهشي ! إنك تبدين عاهرة .

— هل تعلم اني لا ابالي بذلك ؟

— كان عليك البقاء مع ذلك السيد !

— لكنني برفقتك .

http://nj180degree.com

ـ بوسعك اللحاق به فيما بعد ، وليس امامك إلا الاتفاق معه .

ـ إنه لا يعجبني .

ـ لكن لن يضايقك مطلقا أن يكون لديك عدة رجال في الليلة نفسها .

ـ ولم لا ؟ إذا كانوا فتيانا وسيمين .

ـ هل تفضلين الحصول عليهم واحداً تلو الآخر أم جميعهم سوية ؟

ـ كلاهما » .

بدات المحادثة تصبح خطره شيئا فشيئا ؛ وكانت منزعجة منها قليلا لكن لم يكن بوسعها الاحتجاج . والمرء ليس حرا في اللعبة ، فاللعبة بالنسبة للاعب هي مكيدة . ولو لم يكن الأمر يتعلق بلعبة ، ولو كانا مجهولين ، أحدهما بالنسبة للآخر ، لكانت المستوقفة قد استطاعت منذ زمن طويل أن تشعر بالاهانة وتغادر ؛ لكن ليس ثمة وسيلة للفرار من اللعبة ؛ فليس بوسع الفريق مغادرة الملعب قبل نهاية المباراة ، ولا تستطيع قطع لعبة الشطرنج الخروج من خاناتها على الرقعة،ولا يمكن تجاوز حدود مجال اللعبة . كانت الفتاة تعلم انها ملزمة بقبول كل شيء ، تماما لأنه كان المقصود لعبة . كانت تعلم بانها كلما توغلت في اللعبة، كلما غدت مجرد لعبة ، وكلما كانت مضطرة اكثر على لعبها بانقياد . ولم يكن يجدي شيئا الاستنجاد بالحكمة وتحذير النفس الطائشة لكي تحافظ على تميزها ولا تأخذ اللعبة على محمل الجد ، ولأنها كانت بالضبط لعبة ، لم تكن النفس خائفة ولم تكن تدافع عن نفسها وكانت تستسلم للعبة كأنها مخدر .

نادى الشاب النادل ودفع الحساب ، ثم نهض وقال : « لنذهب من هنا

http://nj180degree.com

ـ سالته وهي تتظاهر بعدم الفهم : إلى أين ؟

ـ هيا وبدون أسئلة !

ـ كيف تكلمني هكذا ! !

ـ كما اتكلم مع عاهرة » .

ـ ١٠ ـ

كانا يصعدان الدرج الباهت الاضاءة ؛ كانت مجموعة من الرجال الثملين قليلا ينتظرون امام المغاسل ، ضمها من الخلف بحيث أمسكت راحة يده باحد نهديها. شاهد الرجال القريبون من المغاسل ذلك، فاخذوا يلقون الدعابات . ارادت التخلص لكنه ارغمها على السكون . قال : « ابقي هادئة » وهو ما حياه عليه الرجال بتضامن فظ ، موجهين إلى الفتاة بعض العبارات الناعرة . وصلا إلى الطابق الاول : فتح باب الحجرة ووصل قاطع التيار .

كانت حجرة صغيرة بسريرين مع طاولة وكرسي ومغسلة . أوصد الشاب الباب بالمزلاج والتفت نحو الفتاة . كانت تمكث امامه في هيئة متحدية وفي عينيها شبق وقح . ينظر إليها ويسعى إلى اكتشاف الملامح المالوفة التي كان يحبها بحنان وراء هذا التعبير الشهواني . كان هذا كالنظر إلى صورتين في العدسة نفسها : صورتين متنضدتين تتبدى إحداهما من خلال الاخرى بشفافية . كانت هاتان الصورتان المتنضدتان تقولان له أن يوسع صديقته أن تحتوي كل شيء ، وان روحها كانت لا متناهية بوحشية ، وانه كان يمكن للوفاء أن يجد فيها مكانا له كالخيانة ، والغدر كالبراءة ، والدلال كالحياء » كان يبدو له هذا المزيج الوحشي منفراً مثل تلويث مستودع قمامة . كانت الصورتان المتنضدتان تتبديان دائماً بشفافية ، إحداهما فوق الاخرى ، وكان الشاب يدرك

http://nj180degree.com

بان الفرق بين صديقته والنساء الأخريات هو فرق سطحي،وان صديقته في أعماق كيانها الفسيحة شبيهة بالنساء الأخريات في كل افكارها وكل مشاعرها وكل العيوب الممكنة،وهو ما كان يسوغ شكوكه وغيرته الخفية، وان رسم الحدود المعينة لشخصيتها لم يكن إلا وهماً كان يستسلم له الآخر ، ذلك الآخر الذي ينظر اليها : اي هو . وكان يبدو له انها ، كما كان قد احبها ، ليست سوى ثمرة تفكيره المجرد وقلقه ، بينما كانت كما هي حقيقة تمكث هناك ، امامه بوصفها اخرى وغريبة ومتعددة الأشكال على نحو يدفع لليأس . كان يمقتها .

« مالنا تنتظرين ؟ اخلعي ملابسك ! »

احنت راسها بدلال وقالت : « هل هذا ضروري ؟ »

كانت تلك اللهجة توقظ في سمعه ذكرى مبهمة ، كما لو ان امراة اخرى قالت له ذلك منذ زمن طويل ، لكنه لم يعد يعرف من هي . كان يريد أن يهينها ، ليس المستوقفة ، بل هي ، صديقته . وراحت اللعبة تؤول إلى الامتزاج مع الحياة . لم تعد لعبة إهانة المستوقفة سوى حجة لإهانة صديقته . كان قد نسي انها لعبة . وصار يمقت المراة الماثلة امامه. راح يتفرس فيها ، ثم اخرج من محفظة جيبه قطعة نقدية من فئة الخمسين كورون وناولها إياها : « هل تكفي ؟ »

اخذت القطعة النقدية وقالت : « لست كريماً جداً

ـ قال : لا تستحقين اكثر »

ضمته إليها « إنك تتصرف معي بشكل سيء . يجب أن تكون اكثر لطفاً . حاول ! »

احتضنته وقربت شفتيها من شفتيه . لكنه وضع اصابعه على فمها ودفعها برفق . « انا لا اقبل إلا النساء اللواتي احبهن

http://nj180degree.com

ـ وأنا ، ألا تحبني ؟

ـ لا

ـ من تحب ؟

ـ هل هذا يخصك ؟ اخلعي ملابسك ! »

١١

لم تكن قد تعرت من قبل هكذا . الخجل والشعور بالذعر والدوار ، باتت تشعر بكل ذلك حين أخذت تخلع ملابسها أمام الشاب (ولم يكن بمقدورها التستر في الظلام) كان كل شيء قد اختفى . وكانت تقف أمامه ، واثقة من نفسها ، وقحة ، في غمرة الضوء ، ومندهشة لاكتشافها فجأة الحركات المجهولة حتى ذلك الحين لتعر ساحر متمهل . راحت تخلع ملابسها قطعة تلو الأخرى بعناية وهي متنبهة لنظراته ، وتتذوق كل مرحلة من هذا التعري .

لكنها بعد ذلك ، حين أصبحت فجأة عارية تماماً أمامه ، قالت لنفسها بأنه لا يمكن للعبة أن تستمر أكثر من ذلك ، وأنها في تجردها عن ملابسها ، كانت قد ألقت أيضاً قناعها ، وأنها أضحت عارية تماماً وهو ما يعني أنها لم تكن إلا هي نفسها وأنه يترتب على الشاب الآن التقدم نحوها والقيام بحركة من يده ، حركة تمحو كل شيء ، وبعدها لن يوجد مكان إلا لمداعباتهما الحميمية. كانت إذاً عارية أمامه وقد كفت عن اللعب؛ كانت تشعر بالضيق في نفسها، وظهرت على وجهها الابتسامة التي كانت تميزها في الحقيقة من غيرها ، الابتسامة الخجلة والمرتبكة .

لكن الشاب ظل جامداً ، ولم تبدر منه أية حركة لمحو اللعبة . لم يكن يشاهد ابتسامتها مع أنها مألوفة جداً ؛ لم يكن يشاهد أمامه سوى

http://nj180degree.com

الجسد الجميل المجهول ، جسد صديقته التي بات يمقتها . أخذ الحقد يغسل شبقه من كل طلاء عاطفي . أرادت الاقتراب منه ، لكنه قال لها : « ابقي مكانك حتى أراك جيداً » لم يعد يروم إلا امرأ واحداً ، أن يعاملها كعاهرة . لكنه لم يكن قد عرف عاهرة من قبل والفكرة التي ترعرعت في ذهنه عنها كانت مستوحاة من الادب ومما يسمعه . تلك إذاً هي الصورة التي تذكرها ، كان أول شيء رآه ، امرأة عارية بثياب داخلية سوداء ترقص على غطاء البيانو البراق . لم يكن يوجد بيانو في حجرة الفندق ، لم يكن يوجد إلا منضدة صغيرة مسنودة إلى الحائط ومفروشة بغطاء . أمر صديقته بالصعود اليها . بدرت منها حركة متوسلة لكنه قال : « لقد دفعت لك » .

إزاء هذا التصميم العنيد الذي كانت تقرأه في نظرته ، سعت إلى متابعة اللعبة ، لكنها لم تعد تستطيع ولم تعد تعرف . صعدت إلى المنضدة والدموع في عينيها ، وكانت مساحة المنضدة بالكاد تبلغ المتر المربع ومعوجة القوائم ، فكانت تخشى أن تفقد توازنها وهي واقفة عليها .

لكنه كان مسروراً لرؤية هذا الجسد العاري الذي ينتصب أمامه ، والذي كان تردده المتحفظ يجعله أيضاً مستبداً أكثر . كان يريد أن يرى هذا الجسد في كل وضعياته ومن جميع الزوايا ، كما كان يتخيل ان رجالاً آخرين كانوا قد شاهدوه وسيشاهدونه . كان فظاً وداعراً . راح يقول لها كلمات لم تكن قد سمعته يتفوه بها من قبل . كانت تريد المقاومة والفرار من هذه اللعبة ، فنادته باسمه ، لكنه أرغمها على الصمت وهو يقول لها بأنه لا يحق لها أن تكلمه بهذه النبرة الأليفة . انتهت إلى الاستسلام وهي مضطربة وعلى وشك البكاء . انحنت إلى الأمام، أقعَت حسب رغبته، وقامت بتحية عسكرية ، ثم مشت بخلوعة لتؤدي مشهداً راقصاً ، لكنها زلقت الغطاء بحركة مفاجئة وكادت تسقط . امسكها وسحبها الى السرير .

http://nj180degree.com

اتحد بها . وابتهجت لفكرة أن هذه اللعبة البائسة انتهت أخيرا ، وأنهما سيصبحان من جديد كما كانا في الحقيقة وكما كانا يتحابان . أرادت أن تضغط شفتيها على شفتيه ، لكنه أبعدها وردد بأنه لا يقبل إلا النساء اللواتي يحبهن . انفجرت بالنحيب . لكنه لم يمكنها حتى من البكاء لأن الشهوة الهائجة لصديقها كانت تستولي شيئا فشيئا على جسدها الذي انتهى إلى خنق أنين روحها . لم يعد يوجد على السرير بعد إلا جسدين متحدين تماما ، شبقين وغريبين عن بعضهما . وما أصبح يحدث الآن هو ما خافت منه دائما أكثر من كل الناس وهو ما تجنبته دائما بقلق : الحب بلا عاطفة وبدون حب . وصارت تعلم أنها اجتازت الحدود الممنوعة التي ما بعدها أصبحت تتحرك من الآن فصاعدا دون أدنى تحفظ وبمشاركة كلية . بالكاد كانت تشعر في زاوية متوارية من روحها بنوع من الذعر لفكرة أنها لم تشعر من قبل بمثل هذه اللذة ومثل هذا القدر من اللذة في هذه المرة ــ فيما وراء تلك الحدود .

ــ ١٢ ــ

ثم انتهى كل شيء . ابتعد الشاب عنها وشد الحبل الطويل الذي كان يتدلى فوق السرير ؛ فانطفأ النور . لم يكن يريد رؤية وجهها . كان يعلم أن اللعبة انتهت ، لكن لم تكن لديه أية رغبة بالعودة إلى عالم علاقاتهما المعتادة ؛ كان يخشى هذه العودة . كان يرقد إلى جانبها في الظلمة متجنبا كل تماس مع جسدها .

سمع بعد لحظة نحيبها المخنوق؛ لمست يد الفتاة يده بحركة طفولية خجولة ؛ لمستها وسحبتها ، لمستها من جديد ، ثم بدأ صوت يتسمع ، متوسلا ، مهدجا بالنحيب ، يناديه باسمه ويقول : « إنني أنا ، إنني أنا ... » .

ظل ساكتا لا يتحرك وكان يدرك جيدا ميوعة تأكيد صديقته الحزينة لنفسها ، حيث كان المجهول يتمين بالمجهول نفسه .

http://nj180degree.com

وافسحت الانتحابات المجال لبكاء مديد ؛ وظلت الفتاة تردد طويلا هذا اللغو المؤثر : « انا هي ، اني انا ، اني انا ، اني انا » .

عندئذ بدأ يستغيث بالشفقة (واضطر لمناداتها من بعيد ، لانها لم تكن في مكان ما في متناول يده) كي يستطيع مواساة الفتاة . كان ما يزال امامهما ثلاثة عشر يوما من الإجازة .

* * *

http://nj180degree.com

الفهرس

الدكتور هاقل بعد عشرين عاما	٥
المحـــاورة	٣٩
الفصـــل الأول :	٤١
قاعـــة المناوبـــة	٤١
تنبيه الدكتور هاقل	٤٢
الدكتور هاقل كالوت يستحوذ على كل شيء	٤٢
النجاح الأعظم للمدير	٤٣
تقريظ الحريـــة	٤٤
مدى المسؤولية	٤٥
تقريظ الحب الأفلاطوني	٤٧
الإشـــــارة	٤٩
الشاب الوسيم المعقود الذراعين	٥٠
البـــول	٥١

http://nj180degree.com

الفصـــل الثاني :	**٥٣**
الشاب الوسيم الساخر	٥٣
حزن يشكل ردف	٥٥
رقصة التعرى العظيمة	٥٦
كلمات وداع إليزابيت	٥٧
مرافعـــة المدير ضد فليسشمان	٥٨
الادوار الميثيولوجية	٦٠
نهاية الدونجوانات	٦٠
إشارات جديدة	٦٢
الغـــار	٦٣
ملاحظة بين قوسين	٦٤
طلب النجـــدة	٦٤
الفصـــل الثالث :	**٦٥**
كل واحـــد قال شيئا	٦٥
نظرية فليـــشمان	٦٥
نظريـــة المدير	٦٧
نظريـــة هائل	٦٨
نظريـــة الدكتورة	٧٠
كان الأريج يعبـــق في النسيم الليلي	٧٢

http://nj180degree.com

الفصـــل الرابـع :	٧٥
عودة الدكتورة	٧٥
اخلاقيـــة هاقل	٧٦
المدير المستغلب	٧٧
دفاعــا عن المدير	٧٨
جواب الدكتورة	٧٩
الفصـــل الخامس :	٨١
في دوامـــة المشـاعر النبيلة	٨١
عدم تاكد كل الأشـياء	٨٢
ندم هاقل	٨٣
نهايــة ســعيدة	٨٤
فليخلِ الأموات القدامى المكان للأموات الجدد	٨٧
لن يضـحك أحـــد	١٠٩
تفاحة الشـهوة الأزلية الذهبية	١٤٩
الأوتو ـــ ســـتوب	١٧٣